نزهة الفكر الأدبي

[redacted]

مرتز، جون ثيودور،

نزعة الفكر الأوروبي في القرن

[redacted]

[redacted]

-8 Dec 86

JAYBNL
30 SEP 2009
Circulation Desk A

190
M57hF
c.2

نزعة الفكر الأوروبي

في القرن التاسع عشر

تلخيص عن مقالات العلامة

جون تيودور مرتز

في تاريخ الفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر

بقلم

اسماعيل مظهر

كل رسالة موضوع كامل

الرسالة الاولى — الطبعة الاولى

جميع الحقوق محفوظه
48685

١٣٤٢ — ١٩٢٣

مطبعة جريدة الصباح بالقاهرة ـ لصاحبها مصطفى اسماعيل القشاشي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

مقدمة

الاستاذ « جون تيودور مرتز » اشهر من أن نعرف به ملما بالادب الانجليزى فى العصر الحاضر . على أنه ان كان تعريف القراء بمؤلف أوروبى أمراً واجباً ، فحسبنا أن نقول فى ذلك الاستاذ أن مؤلفه فى تاريخ الفكر الاوروبى فى القرن التاسع عشر ، ينزل من مؤلفات هذا العصر فى التأريخ العلمى منزلة كتاب « غيبون » فى سقوط الدولة الرومانية ، أو مؤلف « مومزن » فى تاريخ روما ، من حيث الاثر والقيمة ، على ما بين التأريخ العلمى والتأريخ العام من الفوارق التى لاتغيب عن المشتغلين بالعلوم الحديثة.

أنفقت وقتاً غير قصير فى الا كباب على دراسة كتاب « مرتز » . تاريخ الفكر الاوروبى : فى القرن التاسع عشر . فثبت فى يقينى أن نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية يكون بمثابة حلقة وصل بين عهدين : بين العهد القديم . والعهد الحديث فى تاريخ العلم والفلسفه . وأيقنت من جهة اخرى أن وقوف الناشئين من ابناء العربية على آخر ماجادت به عقول النبغاء فى أوروبا من ثمرات العلم والفلسفة حتى ختام القرن التاسع عشر : تمهيد ضرورى لمن يريد أن يتابع حركة النشوء الفكرى فى القرن العشرين.

فروع العلوم الحديثة واسعة النطاق . وهى على تباين مراميها ووجهاتها ، متحدة الغاية . فان الغاية منها تثقيف العقل الانسانى . فهى مرقاة يتعلق بأسبابها الانسان لكى يصل الى ابعد حد مستطاع من الرقى الاجتماعى . لهذا رأيت أن لا أقسر القراء على قراءة كتاب فى تاريخ الفكر الاوروبى ، علميا وفلسفيا ، يقع فى أربعة مجلدات ضخام ، فى حين أن كلا منهم قديعنى

بمقال واحد فيه . فان المؤلف قد قسم الكتاب الى شطرين عظيمين : خص الشطر الاول بالعلم . والثانى بالفلسفة . ولم يترك فى كلا الشطرين من علم أو مبحث فلسفى لم يكتب فيه مقالا رائعا ، يصح أن يكون فى ذاته رسالة مستقلة عن الكتاب فى مجموعة . لهذا فضلت أن أنشر الكتاب فى رسائل ملخصة تلخيصا هو اقرب الاشياء شبها بالترجمة الحرفية، بما تقتضيه من أمانة فى تحرى الالفاظ التى تعبر عن حقيقة الفكرة الخفية فى موضوعات العلم والفلسفة .

ولست بمقيد نفسى بترتيب ابواب الكتاب . فقد انشر رسالة من رسائله الفلسفية لاعقب عليها برسالة فى العلم او اخرى فى الادب . وسوف أبذل جهدى لاجعل ظهور الرسائل متتاليا فى فترات تكفى لامتصاص الفكرة المنبثة فى تضاعيف كل منها .

ان تلك الملخصات سوف تكون تاريخاً ومرجعا لبحث الفكرتين العلمية والفلسفية فى القرن الماضى . سوف ترضى مقترح الكثيرين من الاصدقاء الذين طلبوا الى ان أخرج فى العربية رسائل مختصرة توقف الناشئين على ماوصل اليه العلم وما بلغت اليه الفلسفة فى العصور الحديثة . على أنى بعد التفكير الطويل قد اقتنعت بأننا فى عصر أحوج ما نكون فيه الى الترجمة والنقل . فاذا اضفنا الى ذلك أن صوغ المبادىء العلمية والفكرات الفلسفية فى قالب تاريخى أدبى ، أروح على نفوس الناشئين والطلاب والباحثين من الاكباب على المصطلحات الفنية الصرفة، عرفنا الى أى حد تذهب الفائدة فى نشر هذا الكتاب فى رسائل مستقلة تخرج من ثلاث جهات نورا ساطعا . من جهة العلم . ومن جهة الأدب . ومن جهة الفلسفة

***

كذلك قد حررت نفسي من التقيد بنشر كتاب « مرتز » وحده . فان فى عالم المؤلفات الحديثة كتبا قيمة فى مختلف الموضوعات العلمية والفلسفية قد أخص الكثير من فصولها بالتلخيص وان كان اغلب همناسوف يصرف الى كتاب « مرتز » بادىء ذى بدء . على انى سأخص كتاب العلامة «جون ديكسون وايت » ـ فى « تاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت والعلم : فى عصور النصرانية ـ بقسط من العناية لا يضارعه الا عنايتى بكتاب « مرتز » . فان شباب هذا العصر وباحثية ان وقفوا على تاريخ تحرير العقل من اسر الاوهام التى سطت عليه فى القرون الوسطى ، وعرفوا تاريخ الجلاد الذى وقع بين اللاهوت والعلم حتى اواخر القرن الثامن عشر ، ووجدوا بين ايديهم تاريخا كاملا فى كل ما انتج العقل والفكر فى القرن التاسع عشر . اتموا بذلك رحلة يستقر بهم نواها على منتجاب العقل فى القرن العشرين .

على انني ان حررت نفسى من التقيد بموضوعات الكتابين وبماسوف أنتقى من فصول المؤلفات الحديثة التى آنس فيها اتماما لغرضى هذا ، فانى سأعمل على ان احتفظ باوجه العلاقة الواقعة بين ما انتقى من موضوع الرسائل ليحدث تسلسلها فى ذهن متتبعيها كفاءة خاصة يدركون بها مقدار الفرق بين القديم والحديث .

القاهرة اغسطس سنة ١٩٢٣ اسماعيل مظهر

-٦-

نزعة الفكر الاوربي

فى القرن التاسع عشر

الفكر هو العالم الخفى ـ الفكر هو المبدأ الارتقائى ـ تاريخ الطبيعة وكيف يفهم. تاريخ الطبيعة: مستحيل ادراكه بغير القوة العاقلة ـ تاريخ القبائل المستوحشة وماهيته ـ طريقتان لتأثير الفكر فى التاريخ ـ تعريف الفكر مستحيل ـ تحديد الصلات بين العالمين الداخلى والخارجى ـ للفكر معان كثيرة ـ الفكر في العصر الحاضر ـ تاريخ المعاصرين : حد امكانه وقيمته ـ ادعاء المؤرخين امكان الاعتماد على طريقة النظر الموضوعى فى التاريخ ـ قيمة المدونات التاريخية المعاصرة ـ سر الحياة الفكرية ـ الفكر الكامن مادة النبوغ ـ تدوين الفكر المعاصر اكثر امانة ونفعا ـ حوادث الماضى القريب ـ تغير اللغات ـ اشتقاق الفاظ حديثة ـ الغرض من هذه العجالة ـ ليس الغرض وضع تاريخ سياسى ولا علمى ولا أدبى ولا فنى ـ العوامل التى تخلف تأثيرات مافى حياتنا الداخلية ـ المعرفة الذاتية ضرورية ـ تأثير امريكا ولمحة فيه ـ قصر البحث على الروح العلمية فى فرنسا والمانيا وانجلترا ـ وحدة الفكر نتاج القرن التاسع عشر ـ فولتير ـ آدم سميث ـ كوندياك ، واردسوورث ـ مدام ده ستايل ـ باريس نواة العلم ـ بابيج ، هرشل ، بيكوك ـ مجمل لبيج ـ فلسفة كونت ـ تأثير كونستابل في فرنسا ـ تعميم العلم ونشره بين الشعوب ـ أثر علم الصرف والاشتقاق فى تمهيد الطريق لمعرفة تاريخ العلم ـ جوته ـ خصائص اللغة الالمانية ـ الفكر الحديث يخلق كلمات حديثة ـ دي بونالد ، ماكس مولر ـ التعبير عن الفكر فى الالمانية والفرنسوية ـ فلسفة التاريخ ـ الحاجة الى مصطلحات تامة المعنى فى الالمانية والفرنسوية ـ كارليل . .

***

هنالك وراء المشاهد التى تتمثل أمامنا فى الحوادث الخارجية والتقلبات التى يكشف لنا التاريخ عنها جلية أمام حواسنا ، يقع العالم الخفى ، عالم الرغبات والبواعث ، ومحركات الفكر ، متبوعاً بالانفعالات النفسية وقوى الحياة التى تنتج تلك الظاهرات أو تصحبها.

هنالك وراء مظاهر الحياة ، نجد العالم الخفى ، عالم الفكر . وما كان

للتاريخ حسب ما يفهم اليوم من معناه فى اللغات الحديثة ، أن يكون تاريخا حقاً ، حتى يتناول الحقائق والحوادث متتابعة متلاحقة ، متواصلة غير مفصومة الحلقات ، فيظهرها لنا مترابطة الاسباب ، جماعها عائد الى قصد أو غرض ما ، ويرجع بنا الى الماضى سعياً الى علة جوهرية ، أو يسوقنا الى الامام ابتغاء غاية محدودة : كذلك الحال فى محركات الفكر وبواعثه ، والرغبات وقوى الحياة ، التى تقع وراء الحوادث الظاهرة ، فانها تحتاج للاتصال وأن تظهر على حال من النظام والتتابع ، حتى نستطيع أن نبلغ منها بفهم ، أو نتقصاها بتأريخ ووضع . على أن ذلك العنصر الخفى ، عنصر الفكر ، لهو الذى جمع بين شتاتها ، ووصل بين أطرافها ، وهو الذى يجب على المؤرخ اذ يتصدى للكشف عن هذه الحقائق ، أن يستوعب شارده ووارده . والفكر وحده ، مهما تعددت مظاهره ، وتنوعت مشاهده ، سواء أكان مبدأ للعمل وبذل الجهد ، أو واسطة يتلوها التأمل والاستبصار ، فى مستطاعه أن ينظم المتفرقات المبددة ، ويربط بين فروعها ويجمع بين شتاتها ، وفى طوق استطاعته أن يحرك ماليس بمتحرك ، وان يدفع بالحركة الى الأمام ماهو ثابت ، لامتقدم له ولا متأخر . ولا جرم أنك ان استطعت أن تذهب من الدنيا بعالم الفكر ، فانك لاتلبث أن تجد أن اطراد النسق ووحدة الوتيرة ، والتجانس التام ، قد أصبح المبدأ فى نظام الطبيعة .

وهذا القول قد يظهر للسواد الاعظم من الناس غريباً وفيه كثير من التطرف والجرأة . أما أولئك ، فهم الذين يتدبرون ظاهرة الطبيعة العظمى ، أكثر من تدبرهم تلك الحدود الضيقة التى ينحصر فيها عمل الانسان ونشاطه ودائرة تبصره . على أن بضعة ملاحظات لتكفى للدلالة على أن ما أوقن به لاينافى وجهة النظر التى ينظرون . فقد يقول البعض اننا

نجد ، بعيدا عن عالم الفكر الانسانى برمته ، أن للأرض تاريخاً وان للنظام الشمسى تدرجاً ونشوءاً ، وأن النشوء على نظريات العلم الحديث ، هو المبدأ الأوحد الذى يخضع له العالمين ، الحى ، وغير الحى ، وأن السكون والتجانس لاوجود لهما فى الكون . وأنك اينما وليت وجهك باحثاً فى نواحى الطبيعة لاتقع الا على ضروب من التغير ، وأوجه من الحركة . ولكن ألا يعرفون أن التغير والحركة وحدهما لايبعثان على وضع التاريخ وتكوينه ؟ فان التغير والحركة ليصبحان من الاطراد والثبات على نمط معين بحيث يكون حكمهما فى الطبيعة حكم السكون التام ، اذا تكرر وقوعهما متعاقباً على وتيرة واحدة وشكل غير متناه ، أو اذا لم تحدث الحركة شيئاً زائداً على ماهيتها ، بان يكون ذلك الشيء الزائد على ماهية الحركة ، أكبر خطراً ، أو أحسن صفة ، من نقطة الابتداء ؟ ولكن مصطلحات الكلام اذ نستعملها لتدل على ذلك الشيء الذى نخصه « بعظم الخطر » و« حسن الصفة » تلك التى تحتاج فى المقارنة والقياس الى كائن مفكر يجعل لشيء من الخطر والعظم ماليس لغيره ، ويحكم على الاشياء بالقياس على أمثال عليا يتحداها قاعدة لاحكامه ، جماع هذه المعانى ليست بكائنة فى تضاعيف الموجودات أو ظاهرات الطبيعة ذاتها ، بل انك لاتجد لها من أثر الا فى ثنيات العقل المفكر وحده . وقد يصح أن يكون فى مقدور سلسلة من التغيرات الآلية ـ الميكانيكية ـ غير العاقلة ، أن تستحدث اعداداً لا نهاية لها ، او صوراً لانهاية لتنوعها . غير أن النهج الطبعى لا يمكن أن يصبح تاريخاً . الا اذا بلغ حدا عنده يستطيع عقل مفكر أن يفقه منه طريقة الانتقال من حالة الوحدة الى حالة التضاعف والكثرة ، أو أن يستوعب منه طريقة ابراز تلك الصور التنوعية الشتى ،

أو أن يكشف عما اذا كان من شأن تلك الظاهرة الطبعية ان تنتج شيئا ماديا ذا قيمة ما ، أو أن لما تنتج اتصالا بفائدة معينة ، أو أن يستشف منها ضرراً يسبب خسارة ، او نفعاً يحدث كسباً . فالرقاص اذ يمضي في الحركة بمنة ويسرة على نمط واحد غير ذى انتهاء ، والسيار ؛ اذ يتحرك حول الشمس مكرراً حركته الى لا آخر ولا قصد ، والجوهر الفرد اذ يهتز متراوحا فى مكان معين : جماع هذه الأشياء لا تبعث فينا شيئا من حب العناية بها لأبعد من معرفة القانون الرياضى الذى يضبط حركاتها ، ويحملنا دائما على أن نستوعبها عقليا ، أى نفكر فيها . فاتحاد عدد غير متناه من هذه الحركات الاولية ، لا يبعث فينا شيئاً من العناية به ، مالم نعتقد أن من اتحاد مثل هذا العدد قد ينتج شيء جديد غير مرئى . شيء ينبه فينا الشعور بحس من الجمال أو الفائدة اذا عرفناه وملكناه . شيء ذو قيمة غالية فى نظر العقل المفكر ، مهما كان المعنى الذى يؤديه لنا اصطلاح « العقل المفكر » كبيراً أم صغيراً ، عظيما أم حقيراً .

غير اننا اذ ننظر فى العالم غير الحى ، فنجد أن نهج الطبيعة فى التغير وعدم الثبات ، يبعث فينا شيئا من اللذة والعناية به ، ونلحظ أن لذلك العالم تاريخاً ترجع معرفته كما يعود استكناهه الى عقل مفكر يدونه ويتفهمه وينميه ويقدره ، فالى أى حد تتضاعف تلك اللذة وتذهب هذه العناية ، اذا ما نظرنا فى أعمال العالم الانسانى ، حيث يصبح الانسان أول مصدر للعمل ، فضلا عن أنه القوة المفكرة وينبوعها ، مادام ذاك مبلغ لذتنا وعنايتنا من النظر فى العالم غير الحى ؟ فاذا لم يكن فى مستطاع السنين وتعاقبها ، والعصور وتلاحقها ، أن تحدث تغيراً ما ، واذا لم يكن فى مقدور سنن الوجود ونظام الحياة ، الا أن يتكرر وقوعها على نمط واحد غير متناه ،

فلا جرم أن هنالك يتعطل التاريخ ، ويمسك عنه أن يبعث فينا من اللذة مايسوقنا الى العناية به . فان قبائل افريقية المستوحشة تاريخا . ولكن تاريخها قد يصبح معروفا برمته اذا وقفنا على نظام حياتهم اليومية أو السنوية على الاقل ، أو نظام حياتهم خلال جيل على الأكثر . كذلك الحال فى بلاد الصين . فان مافى الحياة الصينية من مظاهر السكون وعدم التقدم تجعل تاريخهم مقتضباً ضئيلا على الرغم مما فيه من التعقيد والاختلاط . فان الوفا من الاعوام تمضى على بلاد الصين لا تسد من فراغ التاريخ أكثر مما تسده أيام معدودة فى تاريخ اوروبا الحديث . أو كما يقولون شعراً : خمسون عاما من حياة أوروبا ، خير من دورة شمسية فى غيرها .

لذلك نرى ان الفكر من طريقين اثنين ذو فائدة كبيرة وشأن عظيم للمؤرخين . فاننا اذ ننظر فى كل تغير يحدث فى الطبيعه أو تبديل يقع فى عالم الحياة الانسانية . نتساءل : أى أثر أحدث ذلك التغير فى عالم الفكر ؟ وأية فائدة او ضرر او تقدم قد أحدث فى عقول الناس الذين هم كاشفو خباياه وملاحظو آثاره ؟ وهل ضاعف من معلوماتنا ؟ وهل زاد الى مجموعة أفكارنا وآرائنا ؟ وهل زادنا بعداً فى النظر وامعاناً فى التغلغل الى صميم الحقائق ؟ وهل أوسع من آمالنا وقوى من عواطفنا ؟ وبالجملة : هل أضاف جديدا الى مصالحنا ولذاتنا ؟ وهل أوسع من حياتنا الداخلية ، حياة الفكر ، فجعلها أكثر امتلاء وأقل فراغا ؟

أما اذا نظرنا فى التغير واقعاً فى الاعمال الانسانية ونتائجها . فاننا نتساءل : ماذا كان أثر الفكر ، عالم الحياة الداخلى ، فى احداث ذلك التغير ؟ وفى هذين السؤالين وحدهما ينحصر واجب المؤرخ اذا ما أراد ان يؤرخ فى عالم الفكر الخفى .

ولا أظن أن هنالك ضرورة تقضى على فى هذا المقام ان أبين عن هذا الاصطلاح ـ اصطلاح الفكر ـ محيطاً بمعناه من كل أطرافه. وفضلاعن بعد ذلك عن الضرورة ، فانى أعتقد ان ذلك خارجاً عن طوق تجاربنا . وقد يساق الكثيرون الى المطالبة بتعريف للفكر ،او بيان أكثر من التعريف دقة فى اظهار الصلة الواقعة بين الطبيعة والحياة والفكر ، على ان أمثال هذه التعاريف يجب ان تترك للقارئ ذاته ، اذا ماشعر بأن هنالك حاجة تقضى عليه بأن يضع خلال تفهمه هذا الكتاب* وما انطوى عليه ، نظريات ذاتية يستخلصها من هذه المسائل فى مجموعها . فوضع أى تعريف فى مثل هذه الحال قد يحوطنا بكثير من أسباب التناقض ،غالب ما تفضى بنا الى التهوش والفوضى . وانى لأعتمد فى ذلك على ماتؤدى كلمة «الفكر» ذاتها من المعنى عامة غير محدودة بتعريف. على اعتبار أنها تنقل الى كل من الناس معنى ذاتياً يدركه بنفسه . معنى يؤهل به الى فهم هذه القضية العامة التى بدأنا البحث بالنظر فيها ، أو يسوقه الى الاعتقاد بوجود عالم خفى يقع وراء عالم الحوادث والحقائق البارزة ، حتى يستيقن من أن لذلك العالم الخفى طبيعة دائمة التغير ، مستمرة الحركة . او يدفع به الى الايمان بأن هنالك علاقة وصلة بين هذين العالمين . وأن كلا منهما يحدث فى نظيره أثرا ، هو نتيجة عكسية لفعل أحدهما فى الآخر .

والعالم الخفى ، سواء أكان من ناحية الوجود الزمانى ، أم من ناحية الخطورة والشأن ، هو المقدم على العالم الظاهر ، وسواء أكان مانتسب من المكانة والشأن لحيز الاستدلال والاستنتاج فى عالم الفكر ، على مافى ذلك

---

* كتاب تاريخ الفكر الاوروبى فى القرن التاسع عشر .

الحيز من الجلاء والوضوح، مساويا أو غير مساو لما ننسبه الى حيز الاحساس والتصور، مشفوعا بحيز الانفعات غير المدركة، على ما فيه من الغموض والابهام، فعامة ذا مسائل ليس من الضرورى أن نجيب عليها فى هذا الموطن. اذ يكفى أن نشير الى وجود عالمى الحياة والفكر، ليعرف بذلك الباحثون أننا لا نعنى بعالم الفكر تلك الآراء ذوات التعاريف المحدودة الجلية المنظومة فى سلسلة ما فحسب، بل نشفعها بعالم الرغبات والانفعالات والاحساس والتصور، تلك التى تؤثر فى حياتنا الداخلية، حياة النفس الخالدة، تأثيرها فى العالم الخارجى.

وسوف أسوق البحث متحديا هذا المعنى فى كل ما سوف اسطر فى هذه العجالة من الكلام فى تاريخ الفكر، مقصوراً على عصر من عصوره وليس فى تاريخ الفكر عامة. سا كسر البحث فى تاريخ الفكر الانسانى على هذا العصر * الذى نعيش فيه، مشفوعا بلمحة فى العصر الذى سبقه مباشرة، وهو العصر الذى يعيش فيه كاتب هذه الكلمات وقراؤه، عصر لهم به الملم وعلم مباشر، وذكريات قد تكون صحيحة، وقد تكون غير ذلك. كان هذا الاعتبار اكبر سبب حملنى على أن أفرغ قصارى جهدى فى بحث تاريخ هذا العصر دون غيره من تاريخ الفكر الانسانى، مقتنعا بانى وقرائى اكثر معرفة بهذا العهد على ما يظهر لى من أى عهد آخر، اذا تسنى لى أن أمضى فى بحثه على الطريقة المثلى. ولما كان كل شخص هو أقدر الناس على كتابة تاريخ حياته، كذلك يغلب على الظن أن ابناء كل عصر من العصور، على اعتبار ما، هم اثبت من يحيطون بتاريخ

---

* القرن التاسع عشر

الفكر فيه .

ولقد قام الكثيرون يناهضون هذه النظرية مناهضة كان مقدارها في كل الحالات رهنا على ماهو واقع بين الحوادث الخارجية من الاثر . تلك الحوادث التي يلحقها كثير من الكتاب بالتاريخ اعتباطا واسرافاً . ويقال ان المعاصرين من الكتاب اذ يؤرخون في عصورهم ، لا يتخطون من التاريخ حد تدوين الحوادث ناظرين فيها من ناحية واحدة فتخرج من بين ايديهم ناقصة بتراء . والحقيقة أن المؤرخ احوج مايكون الى أستيراد اكبر عدد ممكن من المدونات المتنوعة . لأن أصح المدونات التاريخية وأقربها الى الحقيقة ، هي تلك التي تخرج من فكر اكثر الناس قدرة على الجمع بين شتات هذه المدونات ، فيجعلها كلا واحدا ، فيستطيع بذلك أن يتجنب مواضع الزلل التي كثيرا ما تتغلغل الى صميم الابحاث من الاكباب على ناحية واحدة من نواحي النظر الفكري يعكف عليها الكاتبون ، ويمكنه أن يتنكب بذلك سبيل العماية في استقصاء نواحي الاستبصار ، وأن يبعد جهد البعد عن الجهل الشخصي والتخبط والحكم على الاشياء بمجرد اللذة والهوى .

على الرغم من هذه النقائص وأمثالها ، فان مدونات المعاصرين قد ظلت طوال الاعصر ، وستظل أثمن مصدر وأوثق منهل يعتل منه مؤرخو العصور المستقبلة ، الذين هم من الجائز أن يصلوا الى تمحيص براهينها ، والفحص عن أسانيدها ، فيجمعون بين شتاتها ، ويظهرون مواضع النفع فيها فتتمخض عن صورة من التاريخ اكثر ثباتا ، وأبعد دقة ، من صور العصور التي تتقدمها . بيد أن مدونات اللاحقين اذ تكون قيمتها محدودة بعصر ما ، فان تاريخ المعاصرين ، أهل الشهادة لما وقع في عصورهم ، على ما يكون فيها من السذاجة والاطناب بل ومن التناقض ، سوف تبز بعد مضي المئات

والالوف من السنين من حيث البقاء والثبات والقيمة، مدونات اللاحقين على ماسيكون فيها من آثار الجد والجهد الفنى . لان مدوناتهم سوف تكون نتاجالما يبعثه فيهم وحى عصرغير عصرهم ، واقتناع بضروب من الاحكام العامة ليست من نتاج افكارهم . أو كما لاحظ جوته اذ قال :

« ان التاريخ يجب أن يعادتدوينه من حين الى حين ، لا لأن حقائق كثيرة تكون قد عرفت على مر الايام ، بل لان أوجهاً من النظر قد تظهر فى أفق البحث العقلى ، ولان المعاصرين ، الذين هم ذوو ضلع كبير فى تقدم عصورهم وارتقائها ، يساقون دائماً الى غايات ينتهون بها الى حيث تصبح ذات صبغة يقتدر بها على تدبر الماضى والحكم عليه بصورة لم تكن معروفة من قبل »

ان كثيراً من كتاب التاريخ الذين انتهم هذا العصر ، سوف يظلون قروناً عديدة موضع الفائدة ومرجع الجاذبيه العامة ، كمؤرخين أبرزوا للعالم من العدم أساليب جديدة من البحث ، وانتحوا من النظر نواحى مبتكرة فى السياسة والاجتماع والرقى الادبى ، اكثر منهم مقررى حوادث ومدونى وقائع يمكن الاعتماد عليها والثقة بها . وان طريقة النظر الموضوعى « Objective Method » التى يعكف عليها البعض منهم، سوف ينظر اليها ، لا كطريقة ابتغوا بها التحرر من آثار التقيد والتقليد، ولكن كطريقة لم يشعروا لدى اكبابهم عليها ، بما أوحى لهم من قبل تخيلهم ووهمهم الذى يتحكم فيهم التحكم كله .

غير ان الحقائق التاريخية التى يرجع تدوينها ونقدها الى عقول عاصرت وقوع تلك الحوادث لها فائدة مزدوجة فى الكشف عن حقائق العصر الذى وقعت فيه . فان الحوادث ، والعقول التى تنصرف الى

التأمل فيها ، كلاهما يكمل نقائص الآخر ، فى اخراج صورة اكثر كمالا وأقرب الى التمام رحماً . وشأن الحوادث والعقول فى ذلك كشأن المادة والوجهة التى ينظر الى المادة من ناحيتها فى تبعيتهما لزمان واحد . من هنا نسلم بان المؤرخين أمثال « ثيوسيديد » و « تاسيتوس » و « ماكيافيلى » عبارة عن نماذج كاملة فى فن كتابة التاريخ ، وان المذكرات التى يخلفها سياسيو العصور الحديثة عادة ، اثمن قيمة ، وأبعد فائدة ، وأطول بقاء ، من تلك القصص الموصولة الحوادث المحبوكة الاطراف التى يكتبها مؤرخون لاصلة لهم بالزمان الذى يؤرخون فيه ، رغم مايصرفون فيها من الجهد والعناء .

أما وقد انتهى بنا البحث الى أن مدونات المعاصرين للحوادث ذات قيمة خاصة بها مهما كان فى تلك المدونات فى منازع النقص ، فلا نخال أن يكون تدوين الافكار الا ابلغ من تدوين الحوادث خطراً وأبعد نفعاً وأعمق فائدة . لاسيما اذا اخذ « الفكر » على أنه الحياة الداخلية الكامنة لعصر من العصور ، ولم يقتصر معناه على ذلك الجزء الذى يدل على الفكر المحدود القاصر فى الدلالة على منتجات الاقلام خلال زمان مامن الازمان . ذلك لان جزء عظيما من تلك الحياة الداخلية الكامنة لايمكن أن يبلغ منه أحد بفهم أو معرفة ، الا شخصاً اشترك فى تكوينها ومثل فيها من أوجه الحياة دوراً .

الآمال الغامضة المبهمة التى تجيش فى صدور الآف المؤلفة من أبناء آدم وهم عاجزون عن اقناع شهوتها أو التعبير عن حقيقتها ، والسقطات والهزائم التى تمر فى عالم الحياة من غير أن يعرفها أحد أو يهتم بها انسان ، والرغبات التى تعيش فى صدور الناس ممتدة فى سلسلة من التواصل والتتابع

غير متناهية ، أو تتشكل بصورة مامن صور حياتهم ، والمحاولات التى يتشبث بها الناس ابتغاء الوصول الى حل المشكلاب العملية التى يمليها الطمع عليهم ، أو تبعث بها الحاجة فى النفوس، وتلك الساعات الطويلة التى ينفقها محبو العلم سدى ، طمعاً فى الوقوف على أسرار الطبيعة — جماع هذه المجهودات المخبوءة فى نواحى النسيان ، تكون ذلك الهيكل الذى نسميه « فكر الامة » ، ولا يطفو منه على سطح الحياة الا جزء ضئيلا ، بارزا فى صورة من الأدب أو العلم ، أو الشعر ، أو الفن ، أو المنتجات المادية الخاصة بفترة مامن فترات الزمان .

وان لدينا شيئا آخر لا يقل عما سبق القول فيه قدرا ، وان كان اقل منه ظهورا للناس . فان ذلك القدر العظيم من الفكر « الكامن » لهو الذى أتم النضج وهو الذى استجمع مواد الاشعاع الفكرى وجعلها على اهبة الاضاءة ، ان أشعل فتيلها شرارة من الانبعاث فى التأمل والعمل . ان « الفكر الكامن » عبارة عن القوة الدافعة العظيمة التى تستخزنها الازمان ، وتظل مستخزنة حتى تفك عقالها العبقرية والكفاءات الفردية ، فتنبعث فى سبيل الحرية والنشاط .

لقد عرفنا الفلاسفة عند مقدار ما فى الحياة العضوية من أوجه الاسراف . خبرونا عن الآلاف المؤلفة من الجراثيم التى تولد وتتلاشى عبثاً ، وعن مقدار ما ينثر من الحب سدى . والظاهر أن للمجهود العقلي والادبى حظاً من الاسراف والعبث لا يقل عن حظ الحياة العضوية . غير أننا اذا تأملنا فى الحياة العقلية همس فى روعنا اعتقاد يقنعنا بأن مبدأ تعاون الاكثرية لا مبدأ التضحية الفردية ، هو السر فى نجاح الاقلية ، وأن الاتقان وليد الجهد المشترك . وان الكثيرين لابد من أن تتبدد

حياتهم ليصل واحد الى الغرض . أى شعور آخر غير هذا فى مكنته ان يصبح سلوى أولئك الامناء الشجعان الذين انفقوا اعمارهم ابتغاء الوصول الى حل مجموعة المشكلات الاجتماعية على ما فيها من مظاهر الاستعصاء، وعلى مايحف بها من المشكلات ؟ أى سلوى غير هذه لاولئك الذين يعملون على استئصال جذور الرذائل والتعاسة التى تفيض بها الحياة فى المدن العظمى ؟ أو للذين يقومون صارخين فى وجه المستبدين منادين بحرية الشعوب المستعبدة ؟ أو للذين يبشرون بالسلام عاملين على قتل روح الحرب والعسكرية ؟ أى شىء فى العالم أكثر ترويحا على نفس مؤلف ينفق نصف عمره فى تأليف كتاب يخرج من آلة الطباعة ميتا منبوذاً ، أكثر من اعتقاده بأن كاتبا آخر غيره قد ينجح فى المستقبل فيما اخفق فيه اليوم، وان اخفاقه ليس الا جزء من الجهد الكامن الذى سوف يكون حجراً فى بناء التعاون فى سبيل ابراز غرض نافع ؟

غير أنه يحق لنا أن نتساءل فى مستطاع من من الناس أن يكتب تاريخ ذلك الجهد الكامن المحبوء فى ثنايا الفكر العام لامة من الامم ؟ من من الباحثين قد خص بقدر من الحساسية النفسية يمكنه من أن يدرك بشعوره وبصيرته الخفية ، فى أية ناحية من نواحى الحياة كان ضغط الحوادث اشد أثراً، وفى أيها كان الجهد الانسانى اطول مدى ، قبل أن ينبثق فجر الحياة الجديدة ؟ من من المفكرين قد يبلغ خياله وتصوره مبلغا يمكنه من تتبع تلك الخيوط المشعة فى عقل الامم والتى تتجمع فى عقليتها الكامنة حالا بعد حال، بعد أن تسطع اضواء الحياة بنتائج الجهد المشترك ؟

نحن الذين نعيش مترقبين اشعاع الضوء محوطين بما يغشاه من العقبات والمتاعب ، نحن الجنود المحاربون فى سبيل الحق، المنفقون حياتنا وجهودنا

فى جوف المعركة ، لا بعد انتهائها ، نحن الذين يحق لنا أن نفخر بأن فى قدرتنا أن نروى من منازع الآمال الجائشة فى الصدور ، ومن أوجه الجهود التى قام بها كثير من أبطال الحياة الفكرية ، ومن تشعب نواحى الفكر ، رواية أقرب الى الحق رحما ، وأصدق قولا ، وأثبت تأويلا .

على أن لدينا مسألة أخرى نجد فى بحثها لذة وخطرا . قد نتساءل الى أى عصر من العصور الماضية نستطيع نحن الذين عشنا خلال النصف الاخير من القرن التاسع عشر أن نرجع بتاريخ عهدنا الذى نفخر بأننا أوقف الناس على خباياه واعلمهم بما فيه ؟ لا مرية فى اننا نعرف أن آباءنا وأجدادنا الاقربين هم الذين شاهدوا الحملة الانسانية التى قامت للقضاء على تجارة الرقيق واقتناء العبيد ، بل اشتركوا فيها . هم رجال الاجيال الذين قاموا باكبر قسط من الاصلاح الحديث . هم الذين عركوا ذلك الانقلاب المبين الذى احدثه استخدام البخار والغاز . كما انهم من الذين اخذوا بضلع فى حركة التعليم ونشره فى انحاء الارض . هم الذين شهدوا ثورة المانيا ضد الاستبداد البونابارتى . وادركهم « جوته » فى عنفوان رجولته ، فهزت عبقريته اعماق نفوسهم ، واخذوا بضلع فى احداث طور الانتقال الذى أدرك الادب فاطلقوه من قيود العصور الاولى واحتذاء امثلة القدماء ، الى سلاسة الذوق الحديث . ومسهم من شعر « بيرون » مايمس القلوب ، فيصهرها حره ، او يثلجها قره . وانصتوا لمفوهى الخطباء الذين انبتتهم الثورة الفرنسوية الثالثة ، ورووا لنا ماكان من سحر نابوليون الاول على الملايين الذين مضوا به معجبين ، وله خاضعين .

ان الشطر الاعظم من تلك الصور الشتى لا تعيش بيننا اليوم الا فى قالب من القصص يرويه الذين عاصروها ، او فى صدور الذين شهدوها وامتد

.هم أجلهم ليرووا بأنفسهم أخبارها، ولم يتم الا لبعض منهم ان يخلدوا بأقلامهم في بطون الاوراق، أو بريشتهم على لوحة التصوير ، ذكرها.. ليتركوها ذخرا للاجيال القادمة. لم نسعد بسماع كلماتهم فحسب. بل سعدنا بما استقرأنا في ملامح وجوههم من آثار الشدائد التي عانوها والصعاب التي شهدوها ، ورأينا في البريق الذي تبعثه عيونهم موحيات الحمية ومطاوعات الامل. وشهدنا في نظراتهم وفي أصواتهم المرتجة ذكرى ماوقعوا عليه من شهوات الصبا ومسرات الشباب والفتوة . على أننا لم نسعد بهذا وحده . فانهم قد حملوا الينا شهادة ناطقة وأورثونا تراثاً حياً دائماً . غير أنه يخرج عن طوق مستطاعنا ان نورث أولادنا ذلك التراث كما تسلمناه من يد آبائنا : فانه لن يمر من بين أيدينا غير مدخول بتحوير او تغيير .

ان هذا التراث لهو «اللغة» التي علمنا اياها آباؤنا مذ كنا في المهد أطفالا . على انهم قد نالوا من اللغة ، على غير علم منهم، بالتغيير والتبديل . غيروا اللهجة والكلمات والجمل التي تلقوها عمن سبقهم ، اذ ركزوا في تلك الكلمات والجمل طرق الكلام التي شاعت خلال سنيهم وأدمجوا فيها روح عصرهم ، ومزجوها بفكراته وخياليات . وتلك الجمل الممسوسة بأثر الطرق الكلامية الخاصة بهم ، قد ورثناها منذ الطفولة . فكانت المادة التي تكونت منها عقولنا . وكأنها صدفة محبوكة الاطراف لابد من ان تسبك أفكارنا على نموذجها . اوهي الاداة التي نعدم بدونها طريقاً للتعبير عما يخالج أنفسنا من الفكر اوالخيال .

من لغتهم ، ومن جملهم المركبة ، وامثالهم الجارية على السنتهم ، عرفنا كيف نفرق بين ما هو خطير مفيد ، وبين ماهو تافه حقير . ومنها استمدت عقولنا مختلف الموضوعات التي تشغل افكارنا ، والآمال التي تجيش في

صدورنا ، والمبادئ التى نعكف عليها ، والوسائل التى نتخذها فى الحياة هادياً ومرشداً. ولا ريبة فى ان مجمل هذه الاشياء قد ورثوها هم عن غيرهم. غير أن ما أمدتهم به قواهم العاقلة من ضروب الفوارق العقلية الدقيقة ، ورفاهة احساساتهم ، وعريض آمالهم ، جماعها أثر تأثيراً عظيما فى جوهر اللغة. اذ انهم بما اضافوا وما بدلوا ، قد استغلوا ما فى عنصر اللغة من مطاوعات اللين والمرونة ، وما زالوا يعالجونها حتى جعلوها اكثر تكافؤاً مع ما تتطلب حاجاتهم ، ومقتضيات حياتهم .

لقد ورثنا اللغة مدخولة بما حور فيها آباؤنا ، فورثنا معها روح الجيل الماضى . تلك الروح التى تسوقنا كرها الى مناحى من التفكير بعينها ، وترغمنا على أن نلزمها ، وتضع فى طريقنا من الصعاب ما يجعل جنوحنا الى غيرها متعذرا ، اللهم الا اذا تدرجنا فى تنكبها تدرجا ، وابتعدنا عنها متخطين حواجزها خفية متسللين ، حتى نستطيع ان ننبه فى كامن نفوسنا نزعة الى فكرات لم تكن تتدر فى خلدنا ، واذواق لم نألفها ، واحساسات لم تعتدها مشاعرنا .

يعكف الكثير منا على الافكار الموروثة ، وعلى مناحى التفكير المفطورين عليها ، الرسيسة فى اخلاقهم منذ الطفولة . وقد يستعين البعض بتعلم اللغات الاجنبية ، او بالهجرة ابتغاء العيش فى ممالك قاصية عن موطنهم ، على بلوغ درجة من الرقى يسهل معها ان يستوعبوا أساليب جديده للبحث والتفكير . على أن القليلين منا هم الذين يفوزون بابراز شىء من الفكرات المبتكرة المخدرة ، فيكسرون بذلك صدفة اللغة المحبوكة اطرافها على التعبيرات المتداولة ، فينحتون كلمات جديدة وتعبيرات مستحدثة لانفسهم ، يصوغون فيها فكرات ازمانهم المندفعة فى سماء العقول اندفاع السيارات

فى الفلك المرسوم ، ويحددون بها روح زمانهم ليبرزوها فى صورة تكاد تتخيلها امامك تمثالا منحوتا . والمصطلحات اللغوية لاتلبث أن تستعمل مرة حتى تذبع . حتى انك لاترجع النظر كرة الى الماضى جيلا واحداً ، الا ترى مقدار ارتقاء الفكرات والاذواق ، ممثلا فيما دخل على اللغة واساليبها من التغير البين .

من هنا نجد أن كاتب هذه السطور وقارئيها الذين يرجعون بذاكرتهم الى أواسط القرن التاسع عشر ، والذين امدهم تعليمهم وتثقيفهم بتلك الفكرات التى ذاعت منذ جيل من الزمان ، هم وحدهم الذين فى طوقهم أن يفخروا بأن لهم اكبر قسط من العلم بما وقع فى الشطر الاعظم من هذا القرن ، وبالمستحدثات التى انتجها ، والفكرات التى مهدلها سبيل الذيوع والانتشار. وما غرضى من كتابى هذا الا الوصول الى هذه النتيجة . أريد أن أنتشل به من هوة النسيان السحيقة تلك الاشياء التى يلوح لى أنها ميراثنا الخفى ، وأن القى شعاعا من النور على تلك الحياة الفكرية التى تكاد تختتم صفحتها باختتام عصر من أزهر عصور الدنيا بالعلم ، وأكثرها نصرة له. سوف أبذل جهدى فى أن اتعقب خطى تلك الحياة الفكرية ، وأن استعين بكل ضروب المعلومات التى أقع عليها فى مدونات غيرى من الكتاب والباحثين ، على ابرازها فى صورة اكثر تلاؤماً وأشد تكافؤا ، بحيث تعطى الذين يتبعون رأيا مامن الآراء الخاصة بوجهة النظر التى نظر بها فى ذلك العصر الى عالم المادة والحياة ، فكرة عامة تربهم كيف كان أثر القرن التاسع عشر فى تبديلهم عقليا وروحيا . كذلك لم يكن من قصدى أن اكتب تاريخا ألم فيه بمختلف التغيرات السياسية الظاهرة ، أو تقدم الانتاجية الصناعية . أما التغيرات السياسية الظاهرة فقد تصبح أطوع

قيادا لاولادنا منا . واما الانتاجية الصناعية ،فتلك اشياء سرعان ماتنسى وقد تندمج وتنمحى فيما سوف ينتج المستقبل من مخترعات ووسائل ، فلا يكون ما نرى منها فى زماننا الا ممهدات لما سوف يعقبها . كذلك لست أريد أن اكتب تاريخا للمعرفة والعلم ، ولا قصة الادب والفن. فأن هذه الاشياء ان كانت بذاتها نتاج الحياة الكامنة ، بل ان تلك الحياة تتضمنها ، فانا لن نلجأ الى بحثها الا كوسائل لتمحيص النتائج التى قد نصل اليها . أما ماسوف يستغرق أكبر قسط من عنايتى فتلك الآمال والغايات الحية الشاعرة التى تحدث أية حركة ارتقائية ، سواء أفى السياسة أم فى الاجتماع ، ان وقعت عليها. أما اذا لم أقع عليها فسانصرف الى الكلام فى النتائج التى ابرزتها حياتنا الداخلية الكامنة ، والاساليب التى انتشرت بها المعرفة. أو طبق بها العلم ، والمبادئ التى تختفى وراء صور الأدب والنقد ، او ذلك الكنز الروحى الدفين الذى يعمد الشعر والفن والحركات الدينية الى كشف خفياته والابانة عن اسراره . وفى الواقع اريد ان ابحث ذلك الدور الذى لعبته حياتنا الداخلية الخفية، حياة الفكر ، فى تاريخ القرن التاسع عشر ، مشفوع ذلك بأوجه التقدم والارتقاء وضروب الكسب التى كانت نتاجاً لوقوع الحوادث والتغيرات الظاهرة فى عالم الحياة العامة .

اما وقد سلمنا بأن العلم الذاتى والتجربة كلاهما ذو خطر كبير فى القيام بعبء ماخططت لنفسى ، وما دام علمنا قد دلنا على ان عدم الاندماج فى الحياة الكامنة لعصر من العصور ،ان ينتج الا تاريخاً يقتصر على ذكر الاسماء او يتناول بعض الآراء بالنقد ، فانا لا محالة نسلم مع هذا بأن هذه الامور عامة، بواعث تحدد فى وجهنا مجال الانبعاث الى ماوراءها . ولذا اشعر بأنى مقصور على أن اكرس بحثى على الفكر الاوربى وحده.

لم تكن فكرة الاقتصار فى التأريخ على ناحية بعينها من نواحى الفكر موجودة منذ قرن من الزمان لان ذلك كان محتوماً علينا . أما وقد اخذت صورة من صور المدنية الحديثة تتكون حول الشاطىء الآخر من المحيط الاطلانطيقى ، يزجيها شعب قوى موفور القوة والنشاط بكل مهيئات النماء والتطور ، فلا يسعنى مع هذا الا أن اسلم بأمرين : الاول : أن هنالك علماً جديدا يزداد كل يوم خطره ، ويتضاعف شأنه . فى حين أنى لست علىّ علم بشىء من خصائصه وحياته ، ولن أشعر اذا ماارادت انه أوْرخ فى حياته الداخلية الكامنة الا بالعجز والقصور : والثانى : ان عجزى عن التأريخ فيه لا يضارعه الا عجزى عن أن اصور لنفسى مايكون من شبح التثقيف الاوروبى فى عين باحث بعيد عنه ، مبتوت الصلة به ، غير ناظر اليه الا بعين الدنيا الجديدة .

ان الدنيا الجديدة لتنمو وتتكثر . لا من جهة العدد والثروة الاهلية فحسب ، بل من جهة الاستعماق الفكرى ، كلما زادت امعاناً فى النشوء العقلى والتطور الروحى . لذلك لاشك فى انها سوف تعانى مشقة الرغبة فى التأريخ فى حياتها الكامنة وعناصر تثقيفها ، لتعثر فى درج ذلك البحث ، على الخصائص التى تفرق بين مدنيتها ومدنيتنا . غير ان الميول التى يتجه فيها ذلك التثقيف الحديث غامضة على ، بل تكتنفها ظلمة موحشة . وليس لدى مايحول دون اعترافى بالعجز عن ان اقضى فيها بحكم ثابت محدود .

ارانى مقتنعاً تمام الاقتناع بأن الحياة الظاهرة المرئية فى حياة البشر رأى العين والحس ، ليست سوى وعاء يتمضن مادة خفية لاتصل اليها الحواس ، او هى صدفة يتكون فى صميمها جنين المستقبل . لذلك لا آنس

من نفسي قدرة على الافصاح عن ماهيتها . ولهذا لا اريد ان اتناول من حركة التثقيف العام التي ولدها القرن التاسع عشر الا ما احتك منها بالفكر الاوروبي احتكاكا مباشرا ، وكان فيه من الحياة الاوروبية اثر بين.

على انني سوف اقصر بحثي في الفكر الاوروبي على مرتكزه ومحوره . سأقصره على الآداب الفرنسويه والالمانية والانجليزية . ولست انكر ان الآداب الايطالية والسكاندیناوية والروسية محيطة بذلك المرتكز ، بل كثر ما اثرت فيه تأثيرا ما . غير انى فيها اقع على لغات لم آلفها ونزعات لم أتبين ماهيتها وحقيقتها . فكنت اشعر بانه يستحيل على ان اتميز شيئا من صبغة الحياة الجديدة الكامنة فيها . وكانت مسؤوليتي تزيد في نظري كلما زدت اقتناعا بانني ان تناولت تلك الآداب ببحث ، اضطررت الى أن الزم نفسي عنت السعي وراء الكشف عن اسباب و بواعث لم تنتهيا الى سبل الابانة عن خفياتها ، لا بلغ منها بدرس يرضي الحق والضمير .

يقتصر بحثنا على الفكر الاوربي - أي على الفكر في فرنسا والمانيا وانجلترا - خلال الشطر الاعظم من القرن التاسع عشر . ومهما أحاط بهذا البحث من حدود الزمان والمكان ، فانه لا يزال شاقا متشعب الاطراف أشعر منه باستيحاش وخوف . ومع هذا فقد جعلت رائدي في كل مباحثي التي سوف اسوق بنفسي في غمراتها ، وفي كل الصور والملخصات التي سوف أبرزها ، أن لا أهمل في بحث كل منها فكرة الوحدة التي تجمع بينها . وما تلك الوحدة في نظري سوى ذلك الشيء الذي ألزمتنا اياه روح التقدم الذي وقع في عصرنا . وهي في ماهيتها نتيجة ما بذل من الجهد خلال القرن التاسع عشر . فلقد كان يتعذر عليك منذ قرن واحد ، لا بل منذ خمسين عاما فقط ، أن تتكلم في « الفكر الاوروبي » على الوجه الذي

أتكلم به الآن. فان القرنين السابع عشر والثامن عشر ، هما القرنان اللذان صبغ فيهما العلم بصبغة الوطنية . لان فيهما حلت اللغات الوطنية الخاصة بكل أمة من الامم ، محل اللغة اللاتينية العامة فى تواليف الآداب والعلم . وفيهما بدأت تتميز الآداب بميزات الشعوب وتصبغ بصبغتها ، وفيهما بدأ الفكر يستقل باستقلال الامم القاطنة فى غربى أوربا استقلالا معنويا. لهذا تجد أن الناس فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر قد بدؤوا باسفار طويلة قضوها فى التأمل والدرس ، متنقلين من مملكة الى أخرى ، ليخصوا أوطانهم بما ينقلون من فكرات مبتكرة أو أساليب للبحث غير مألوفة. على أن هذه الاسفار قد عقبها ذيوع الافكار الحديثة. فوفد الى انجلترا « فولتير » Voltaire. عام ١٧٢٦ حيث نشأت فلسفتا « نيوتن » Newton. و « لوك » Locke. ولم يكن قد وصل الى فرنسا علم بهما . وساح « آدم سميث » Adam Smith فى فرنسا عام ١٧٦٥ حيث درس طريقة « كوينسى » Quensay. الاقتصادية ، واكب على مباحث « الفيزيوقراطيين » Physiocrats. يدرسها الدرس الوافر ، ومنها كون فكرته التى بنى عليها فلسفته الاقتصادية التى أخرج فيها كتابه « ثروة الامم » The Wealth of Nations. وخلال الربع الاخير من القرن الثامن عشر أسس « ا . ج . فرنر » A. G. Werner. أكاديمية التعدين ، التى كانت قد وجدت فى صورة معهد قروى عام ١٧٦٦ ، فاصبحت مركزاً من أعظم مراكز العلم والتنوير العقلى فى أوربا ، واليها اليوم يسعى طلاب العلم من اقطار الارض قاطبة ليتلقوا تعاليم اساتذتها العظام . وفى أواخر القرن التاسع عشر هبط « وارد سوورث » Wordsworth. و « كوليردج » Coleridge. المانيا ، ولم يعد « كوليردج » الى انجلترا الا مزودا بفلسفة « كانت » Kant.

وفلسفة « شيلنج » Schelling. ولا ننسى مدام « دى ستايل » M. de Stael. فانها لم تكد تسمع ان فى المانيا حركة ادبية حديثة تناقل اخبارها بعض مهاجرى الثورة الفرنسوية ، حتي عمدت الى دراسة اللغة الالمانية باقصى ما وصل اليه الجد والنشاط ، مقتنعة بأن صورة حديثة من صور الفكر قد انبتها العقل الالمانى . ثم زارت المانيا من بعد ذلك مستصحبة « بنيامين كونستان » Benjamin Constant. فى أواخر عام ١٨٠٣ ، وكرة ثانية عام ١٨٠٧ . ومن ثم كان كتابها الذى اسمته « عن المانيا » De L'allimagne. نتيجة سياحتيها . وبينما كان « كوليردج » ومدام « دى ستايل » يستنزلان وحى تلك الحياة الجديدة التى بعثتها عبقرية « جوته » Goethe. و « شيلر » Schiller. فى « فيمر » Weimer. كان طلاب العلم فى انحاء القارة الاوروبية يولون وجههم شطر باريس ، حيث ظلت تلك المدينة بضعة عشرات من السنين محور البحث العلمى ومبعث الاساليب الحديثة ، وحيث تركزت الفكرات العلمية المبتكرة فى نقطة ، واخذت تشع بنور المعرفة .

لقد ظلت باريس أكثر من نصف قرن مهبطا لوحى الفكرة العلمية ، حتى أن فلاسفة الانجليز الذين ظلوا منذ زمان « باكون » Bacon. و « نيوتن » متتبعين تقليد الاستقلال بأساليبهم الخاصة فى البحث ، قد اقتنعوا فى أواخر العقد الثانى من القرن التاسع عشر . بان اسم « نيوتن » العظيم لا يقوم بذاته كفيلا بأن طريقته العلمية بالغة أقصى حد من المتانة والثبات ، مستندين فى ذلك على ما رأووا من اوجه التبديل والارتقاء التى احدثها فيها رياضيو القارة الاوروبية . ولقد وفدت تلك الاساليب المبتكرة الى انجلترا بفضل ثلاثة من خريجى جامعة « كامبردج » هم « هرشل » Herschel. و « بابيج »

« وبيكوك » Peacock. « لاكروا » Lacroix. « Babbage. ترجموا مقالة ففتحوا بذلك ميداناً للبحث الرياضى كان مغلقا ، وبدؤوا للتفكير الرياضى عهداً جديداً . وبعد أن مضى على ذلك العهد خمسة عشرة سنة ، توافد طلاب العلم من نواحى الدينا الاربع على بلدة «جيسن» Geissen. الالمانية ليتلقوا فى كلياتها علم الكيمياء الحديث ، وأساليب البحث التى كانت تلقى فى معمل « ليبج » Leibig. . وكانت تلك الاساليب من قبل طرقاً خاصة ، مقصور نفعها على المعامل التابعة لبضعة أفراد من العلماء .

ولقد يذكر البعض منا ما احدث ذيوع فلسفة « اوغست كونت » Auguste Comte. بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٤٠ ، تلك الفلسفة التى ظلت بلاء أثر بين فى بلاده فرنسا ، ولم تكسب مركزاً ذا شأن فى الفكر الانسانى الا بما كتب فيها «جون ستيوارت ميل» J. S. Mill. ومدرسته وتابعيه ، وبما تركز فيها من صور الفكر الخاصة بانجلترا ، ومن ثم عادت الى فرنسا ثانية بعد مضى جيل تام على وفودها الى انجلترا .

حدث مثل هذا لمصور انجليزى صرف همه الى تصوير المناظر الطبعية . فقد ظل « كونستابل » Constable. مهملا حتى عرضت صوره فى فرنسا عام ١٨٢٤ ، فاحدثت اثراً عظيما فى مصوريها الى حد انهم يعتبرون عرضها عهداً جديداً تناول تصوير المناظر الطبعية فى فرنسا بأعظم تطور وقع فى تاريخ هذا الفن .

ان امثال هذه السياحات الاستكشافية فى عالم الفكر والنشاط العقلى ، أصبحت مستحيلة فى العصر الحاضر . لان العلم خلال القرن التاسع عشر قد لبس ثوب الشعوبية . ومعاهد العلم المستقلة المبتوتة الصلات بغيرها ، أخذت تقل وتزداد ندرتها حيناً بعد حين . فان التراسل ، وذيوع

المجلات الدورية ، والتئام الجماعات العلمية ونشر مقرراتها ، قد كفل للعالم أن يظل محيطا بكل ما تخرج العقول من المستكشفات الحديثة مهما ضؤل شأنها. على أن صيغه العلم الوطنية لا تزال باقية . غير انه لا يمكن العثور عليها الا فى دفائن الفكر البعيدة القصية ، كخطرات النفوس الخفية ، والمصطلحات الكلامية التى لا تجد بعض اللغات متسعا لنقلها الى ابنائها . وللعلم ، كما لدورة الليل والنهار ، غسق وفجر ، وله صبح تختلط به خيوط الفجر ، وله ضوء ابلج لم يشبه من ظلمة الليل دنس . غير أن ضوءه الابلج قد نما وانتشر وزاد اشعاعا خلال القرن التاسع عشر . حتى أننا لنستطيع أن نتكلم فى نزعة الفكر الاوروبى فى مجموعه اليوم ، اذا قصرنا الكلام على الفكر فى فرنسا والمانيا وانجلترا ، فى حين اننا لم نكن لنبلغ الى ذلك فى الزمان الفارط.

وانى مع احتفاظى بغرضى الاول ، سوف أسوق مباحثى فى اكثر جهات الفكر الاوروبى اتساعا واخصبها انتاجا .. كيف كانت نشأتها ؟ وكيف بلغت الى ماتراها عليه ؟ وماذا كان أثر كل امة من الامم فى تكوين مجموعة الفكر العامة ؟ وما هو حظنا من الجهد فى ابنائها بالجديد وتزويدها بالحديث ؟ وما هى التغايرات التى انتابتها خلال القرن التاسع عشر ؟ ولكن قد نضيف الى هذا سؤالا يترتب عليه ماسوف نتبع ازاء هذه المهمة من طرق البحث . قد نسأل كيف نصل الى الجمع بين ما تفرق من مجموعة الفكر ؟ كيف نستطيع أن نفرق بين ماهو نتاج جهدنا وبين ماهو نتاج جهد غيرنا ؟ ان لدنيا طريقة واحدة . غير انها ليست الطريقة التى سوف نتبعها على وجه الاطلاق ، وأن كانت طريقة جديرة بانعام النظر والاعتبار.

لقد أبنت من قبل كيف أن التغايرات التى تنتاب عالم الفكر تتركز

فى عنصر اللغة المرن ،وفى الاساليب التى يبتكرها العصر . ان دراسة تلك التغايرات التى انتابت الكلمات اللغوية خلال العصر ،والاساليب التى تعاقبت على ثلاث اللغات الرئسية فى اوروبا ـ الفرنسوية والالمانية والانجليزية ـ لتدلنا واضح الدلالة كيف ومتى نشأت وشبت الفكرات الحديثة ، وكيف ثبتت وتحددت معانيها بكلمات او مصطلحات لغويه ؟ ولا يساعدنا هذا البحث على ا كتناه الكيفيه التى نمت وترعرعت بها الفكرة الاوروبية فحسب ، بل يعرفنا كيف هاجرت الفكرات الفردية والمذاهب من امة الى امة ، وكيف انتقلت من شعب الى شعب . وفضلا عن هذا فان هذه الطريقة لتعرفنا بأية من الوسائل وجدت الفكرات الفردية ،التى نشأت فى عقول تلك الامم الثلاث مكانا حريزا تنمو فيه وتلقى بذرها.

ان كل من تعمد الترجمة والنقل من احدى هذه اللغات الى غيرها ، سواء أكان نثراً ،أم غناً منظوما ،أم فلسفة أم شعراً وصفياً ، لابد من أن يكون قدعانى ضرورة الاكباب على دراسة طبيعة الفكر ،أو المعنى الذى تؤديه الكلمات أو الجمل دراسة تامة . لابد من أن يكون قد سيق الى معرفه ماهو شائع بين اللغات جميعاً وبين ماهو خاص بكل منها ، والفكرات التى تعبر عنها المصطلحات .

ينسب الى « جوته » عادة انه خالق تلك اللغة ، وذلك الاسلوب ، الذى برز فيهما اجمل مافى الادب الالمانى الحديث . ولن نعثر على كاتب آخر ،سواء أفى المانيا أم فرنسا أم انجلترا ،احدث ما احدث « جوته » من التأثير البين فى آداب القرن التاسع عشر . غير اننا مع هذا لانغفل عن أن عظماء كتاب فرنسا الرومانيين وفلاسفه المانيا الميتافيزيين ـ اصحاب ماوراء الطبيعة أو الغيبيين ـ والعقول الشعرية الخيالية التى انبتتها انجلترا

الحديثة ، جماعهم قد أضافوا الى مجموعة الكلمات ، وزادوا الى لغاتهم عدداً عظيما من التعبيرات اللغوية ذوات الفائدة الجلي . ولقد كان « لكارليل » ـ Carlyle. ـ اعظم الأثر فى نحت كثير من النعوت والكنى التى استمدها من اللغة الالمانية ، وأدخلها فى تضاعيف اللغة الانجليزية . كذلك قدصرف « ماتيوأرنولد » Mathew Arnold. جهده فى مثل هذه السبيل ، حيث استمدمن مؤلفى الفرنسويين مثل « سانت بوف » Sainte-Beuve ـ وغيره من أعضاء مدرسة « التحليل النفسى » * فى الادب ، Introspective School. ، كما استمد من « جوته » و « هين » ـ Heine. ـ . ولقد كانت المانيا أقل حظاً فى نشر كلماتها اللغوية الخاصة بها . فان استعداد اللغة الالمانية لادماج الكلمات الاجنبية عنها واستعمالها من غير تحوير فيها أو تبديل ، قد أثر تأثيراً عظيما فى صبغ الاسلوب الالمانى بصبغة التعقيد ، حتى فقدت اللغة الالمانية مرونة أسلوبها وجمالها وعنصرها الشعرى . وانى لارجح أن الباحثين سوف يعرفون عما قريب ان ما طرأ على مفردات اللغات الحديثه من سعة المعنى ، لامن جمال اللفظ ، راجع الى تأثير العلوم Sciences. على الادب وحركة التثقيف العام . فان كثيرا من الكلمات المتداولة المعروفه قد حازت من تلك الطريق معان جديدة اكثر سعة وابعد ضبطاً .

ان كلمة « نماء » Development. الغامضة المبهمة ، قد رجحتها فى الاستعمال

---

* سانت بوف (١٨٠٤ — ١٨٩٦) لم يكتف بفهم الادب من البيئه أو من العوامل الاخرى بل اراد ان تكون صلة الادب بين الكتاب انفسهم وبين امزجتهم وخواصهم النفسيه والعقلية .

كلمة « نشوء » Evolution. كذلك قد أصبح لكلمة « Differentiation. « تفريق او تعضون » معنى فلسفياً حديثا ، عدى معناها الرياضى . كذلك اذا نظرت الى كلمة « Positive. » « ايجابى » أو « يقينى » فأنك تجد أنها قد حازت معنيان جديدان ، محددان تمام التحديد لم تكن لتدل عليهما من قبل ، عدى معناها المنطق . وكلمة « Energy » ـ « نشاط » ـ قد تضمنت معنى جديدا ، غير معناها العام ، وغير معناها الفلسفى الذى خصها به « أرسطوطاليس » Aristotle ، حيث أخذت فى انجلترا ، ومن ثم فى بقية الممالك الاوروبية ، مكان كلمة « Force » أى قوة ، كاصطلاح اكثر ضبطاً للمراد ، وأدل على المقصود . واليك كلمتا « ارتباط أو تبادل » ـ Correlation « وحفظ أو بقاء » ـ Con servation فانهما على علاقتهما بكلمة « Energy » ـ نشاط ـ اصطلاحان لهما قيمة علمية خاصة . ثم كلمة « الاصلح » Fittest ، واستعمال « التناحر على البقاء » Struggle for existence ، فانهما ايدلان على شيئين يختلفان كل الاختلاف عما كانا يدلان عليه منذ خمسين سنة خلت . ثم لديك اصطلاح « تام » Exact « وعلم » Science فانهما كذلك يدلان على شىء لم يكونا يدلان عليه من قبل .

ولقد خرجت اللغات من المذاهب الحديثة التى ذاعت فى حدود المعرفة الانسانية والادراك العقلى باصطلاحات فلسفية حديثة منها « اللاشاعر » « Unconscious » « والمجهول » Unknowable ، « واللاأدرى » Agnostic ، وهى تدل على مناحى كاملة من الفكر الحديث .

ولا مشاحة فى أنه من أبعث الاشياء على تحصيل الفائدة أن يتتبع الباحث أصول تلك الكلمات والجمل وأن يرجعها الى مناشئها الاولى ، أو أن

يستعمق فى بحث تلك المعانى التي كسبتها الكلمات الشائعة المعروفة . أنك ان تتبعت هذا البحث فى ثلاث اللغات الرئيسية فى أوروبا ، كان هذا بعينه أقرب الاشياء الى البحث المنظوم لمعرفة حقيقة تلك التغايرات التى انتابت الفكر الحديث .

وليس لدينا من ضرورة تلزمنا ان نتذرع فى الوصول الى غرضنا بالعكوف على نظرية مانتخذها قاعدة لما نرى من العلاقة بين المدنية والفكر واللغة . فان القرن التاسع عشر لم يعدم شيئا من هذا ، منذ عصر « دى بونالد » De Bonald * الذى لم يكن ليرى فى اللغة الا تنزيلا قديماً ، الى أحدث العصور وأكثرها تشبعاً بروح العلم ، أى عصر «ماكس موللر» Max Muller الذى مزج الفلسفه بعلم اللغة ، ** متتبعاً نفس الطريقه التى أصبح بها علم الفلك فى نظر الكثيرين مسألة تحليل فحسب «Une question d'analyse». على أننا نستطيع ان نوفق من ناحية مابين « دى بونالد » و« ماكس موللر » . فاننا كأفراد ولدنا وربينا فى عصر تمدين وتثقيف عقلى ، نبدأ عادة بالتقاط الالفاظ والكلمات ، قبل ان نستوعب الفكرات الواضحة ذوات الضوابط المحدودة . لهذا يخيل الينا ان فكرة « دى بونالد » راجحة ، مالم نستعمق فى البحث فى أصل اللغة والفكر ونشوئهما . ثم انظر الى ذلك السنن الهين الذى ندخل به من طريق استعمالنا للغة آبائنا الى ذلك التيه الموحش المترامى الاطراف ، تيه التفكير العقلى الصرف . فان هذا الامر ليكاد يكون معجزة فيها من أثر الوحى مافيها .

---

* دى بونالد ـ ١٧٥٤ ـ ١٨٤٠

** كتاب موللر (علم الفكر) عام ١٨٨٧

غير أنه ليس من قصدى كما قلت من قبل ان أمضى فى دراسة الفكر الاوروبى ونشوئه خلال القرن التاسع عشر من طريق التحليل الدقيق لاوجه التغاير والرقى التى طرأت على اللغات الرئيسية . لان ذلك لايتيسر الا لاولئك الذين نالوا قسطا وافرا من العلم بمفردات اللغة لم يتح الا لمن كتبوا القواميس والمعجمات الكبرى مثل «جريم» Grimm. و«ليتريه» Littré. «وموراى» Murray. : وانى وان كنت أشعر من نفسى بالعجز عن بلوغ هذا القصد ، فلدى مسألة واحدة تضطرنى الى الدخول فى بحث غراماطيقى Grammatical. ـ يتناول كلمة «الفكر» ـ Thought. ، وكيف تعبر عن المعنى الذى أدركه منها فى اللغتين الفرنسوية والانجليزية ؟ وكيف تترجم تلك الكلمة ؟ فان الموضوع الذى نكتب فيه غير مقصور على الانجليزية وحدها ، بل يتناول الفرنسوية والالمانية . لهذا يجب ان يكون له ـ أى للفكر ـ كلمة يعبر بها عنه فى اللسانين الفرنسوى والالمانى .

انى اعتقد ان كلمه « Pensée. » تعبر فى الفرنسوية على وجه التقريب عن ذلك الشىء الذى يعبر عنه فى الانجليزية بكلمة « Thought » اى « فكر » على أنه من الصعب ان تعثر فى الالمانية على كلمه تؤدى هذا المعنى ولقد ترددت حينا فى الاختيار بين «Geist» وكلمة Weltanschauung. وهما اصطلاحان كثر ما استعملا ليدلا على الحياة الكامنة لعصر من العصور . غير انى صممت فيما بعد على استعمل كلمه « Den ken » ، لان فى هذه الكلمه ماينا قض المدرك من كلمه الحياة « Life » و« الفعل » Leben und handeln. ـ Action وهى تدل على العالم الداخلى . فى حين ان مضاد Geist. هى كلمة Stoff. أى « مادة » Matter فى الانجليزية. وكذلك كلمه Weltanschauung. فانها فضلا عما تدل عليه من عمق

التعبير، وعلى كونها غير قابلة للترجمه الى لغـه أخرى ، فانها تدل على نتاج الفـكر وثمراته ، أكثر من دلالتها على الفكر ذاته .

فاذا انتقلنا من البحث فى الـكلمات الى الموضوع ذاته ، وجدنا أن مافى الاصطلاح الانجليزى من دقة التعبير والتحـديد قد صحبه انتشار كثير من المؤلفات فى الموضوع . على أن الفكرة فى فلسفة التاريخ ترجع فى الأكثر الى مفكرين انبتتهم القارة الاوروبية وعلى الاخص «هردر» Herder. « وهيجل » Hegel «وكونت» Comte « وجيزو » Guizot « وفولتير » فى كتابه « عصر لويس الرابع عشر ». فان مؤلفات هؤلاء سوف تظل مثالا لما يصور به عصر من عصور المدنية . غير انى مع هذا مقتنع تمام الاقتناع بأن مؤلفات « كارليل » «وبوكل» Buckle «ودرابير» Draper. « وليكى » «Leckcy» ولسلى ستيفن » LeslieStephen وعلى الأخص مقالة « مارك باتيسن » Mark Pattison من حيث السعة وبعد النظر ، هى التى ركزت فى عقولنا معنى كلمة «فكر» Thought كأكثر المصطلحات كفاءة على تحديد مانعنى من الحياة الكامنة أو النشاط العقلى خلال عصر من العصور أو أمة من الامم . لهذا سوف أعكف على استعمال الاصطلاح الانجليزى لأنه عندى أكثر المصطلحات ملاءمة وقرباً من اذهان القراء ، وأمت فى الوقت ذاته الى الذين يعارضون فى استعمال الاصطلاح الفرنسوى ومايناظره فى الالمانية لغموضهما ، أن يبحثوا عن تعريف لما اقصد من الكلمة الانجليزية Thought. أى « فكر » .

ولست أعلم أن فى الادب الفرنسوى برمته كتاباً فى تاريخ « الفكر » Histoire de la pensée تناول بالبحث عصراً طويلا أم قصيراً من عصور النشوء الفكرى . على انى اعرف فى الادب الالمانى عدداً

من المؤلفات فى تاريخ الفكر . غير أن معظمها قد استعمل كلمة Weltanschauung. أو أوسع من معنى الفكر فجعله يدل على عصر من عصور المدنية Kulturgeschichte. أو حدد دائرته فاصبح قاصراً على تاريخ الادب وحده . وجماع ذلك عائد الى حاجة اللغة الالمانية الى اصطلاح محدود المعنى كالاصطلاح الانجليزى . على أننى مع هذا اعتقد ان تصور « الفكر » على النمط الذى امضى فيه وليد التقدم الشعوبى العام، وليس خاصاً بتقدم العقل الانجليزى وحده ، ولم يتمخض عنه الزمان الا فى العصر الذى أؤرخ فيه . وهو عصر كان اخص مافيه من صور الارتقاء تبادل الفكرات بين الشعوب، بعد أن كسرت الامم قيود الاستقلال بمنتجاتها العقلية .

لقد تحيز فى عقل النابغة « توماس كارليل » ذلك التصور العميق الذى حدى به الى الاعتقاد بأن هنالك كائناً عقلياً روحياً مختبئا وراء الحركات العالميه الظاهرة . ذلك لان « كارليل » كان أول من عنى من علماء الانجليز ببحث البواعث العقلية التى انتجت ذلك التغير البين الذى نشهده فى اوروبا الحديثة . هو أول من خص كلمة « فكر » Thought. بمعنى خاص بها ، هو نفس المعنى الذى نخصها به فى مبحثنا هذا ، وجعل « الفكر » موضوع دراسة خاصة للذين أتوا من بعده من الباحثين . هو الذى حدد « الفكر » واوسع من دائرة البحث فيه، ففتح للعقول اوجها من التأمل فى حقيقة الفكر . ولكنه مع هذا خلقه خلقا جديداً، فأخرج منه قوة شعر بها كل انسان، ووضع له اصطلاحا لن تبلغ اللغات الى وضع مايدانيه ضبطا وتحقيقا.

لايوجد فى كل اللغات الاوروبية اصطلاح كالاصطلاح الانجليزى الذى وضعه « كارليل » يتضمن الفكرة فى السبب والنتيجة معا ، ويجمع بين

الاجزاء والكل المثالى. وهو مع هذا اصطلاح لا يلزمنا العكوف على نظرية موضوعة أو مذهب شائع ؛ اذ أن ذلك الاصطلاح يفسح للمفكرين الذين تختلف نظراتهم كل الاختلاف مجال النظر فى حقيقته من غير أن يفقد كل منهم شيئا من استقلال فكرته .

٢

الباعثان الاولان على الارتقاء العقلى ـ الغرض من الكتاب ـ القرن التاسع عشر وما تم فيه ـ أسلوب المعرفة ـ وحدة المعرفة ـ البحث وراء الحقيقة الاسلوب العلمى بدأ به غاليليو وحدده باكون ـ احلال أساليب البحث ـ الفرق الظاهرى بين العلم والشعر ـ العلم والحياة اكثر ترابطا مما يظن ـ ما فعل القرن التاسع عشر للمثاليات ـ ادراك المصالح والحاجات البشرية من طريق أعمق من المأخوذ به ـ الاصطلاحات المختلفة للتعبير عن وحدة المعرفة تحديد الفكر ـ عصر الدرس الانسيكلوبيذى ـ تناسى وحدة المعرفة تدرجا محاضرات عن الانسيكلوبيذية فى المانيا ـ الانسيكلوبيذيات لم تتم ما قصد منها ـ الفرنسويون أساتذة العلم فى أوائل القرن التاسع عشر ـ الانتقاض فى المانيا ضد الغيبيات : الميتافيزه ـ الاصلاح فى علم الآداب المدرسية ـ تفوق المانيا فى دراسة الحياة الفكرية ـ الانتقال من الطريقة الغيبية الى الطريقة التاريخية ـ هربرت سبنسر ـ لودز وعالمه الصغير Microcosm. ويعنى به الانسان ـ حياة البشر العقلية ـ للاساليب العلمية حياة تنقضى

* * *

فى الحياة الانسانية باعثان ساعدا على تقدم النوع البشرى من الوجهة العقلية . وغالب ما ظهر هذان الباعثان بمظهر التضاد فى طريقة عملهما وتأثيرهما . غير أن الحقيقة ان احدهما لن يستطيع أن يحدث من حدث بالغ الاثر ، قبل أن يمده الباعث الآخر بقوته ، ويزكيه بعنصره . أما الباعثان فانتشار المعرفة من جهة ، وتكشفها من جهة أخرى . فالحيرة الفكرية وحاجات الحياة العملية ، والتجاريب اليومية الواقعة بين ساعة وأخرى ، كلها عوامل تبعث على اتساع دائرة المعارف الانسانية واستجماع موادها وعناصرها .

على ان نمأ المعرفة وتشعب أطرافها ليصبح معدوم الجدوى ان لم تتنبه لمشاعر لخطورة شأنه . ولا يغيب عنا ان لمطاليب المعرفة وضروراتها من لخطر والشأن ، مالاستجماع المعرفة ذاتها . مثلنا فى ذلك كمثل من يريد

ان يستكشف اقليما ما . اذ كلما كانت النواحى التى نريد استكشافها اكبر مساحة وأفرطسة ، كلما زدنا بحثا عن المواضع التى تساعدنا على أن نبصر اكثر مانستطيع من مناظر ذلك الاقليم التى تمتد الى مرمى النظر ، أماما وخلفا. غير اننا مهما تذرعنا بالحيطة وأهتدينا بالحذر ، فغالب ماتكون المناظر التى تقع تحت حسنا خداعة مضلة .ذلك لانها تلزمنا غالبا أن نرجع بالنظر كرة ما استكشفنا من النواحى آناً فآناً؛ اذ تعطينا؛ كلما تقدمنا الى الامام، صورة اكثر وضوحاً عن متعرجاتها ومفاوزها ؛وعن مواضع ماتحوى من الاشياء والاشباح.فى حين أنها لا تلزمنا ذلك وحده . بل تبسط مع هذا لا نظارنا البقاع التي لم نستكشفها بعد . ومن ثم توحى الينا ، وتلقى فى روعنا ، ما يجعلنا نضرب باقدامنا الى الامام ، مسوقين برغبة الوصول الى استكشافات أخرى ، بما تزين لنا من أمل ، وما تهيء لنا من بواعث، تحملنا على أن نقدم فى مخاطرتنا مأخوذين بمزجيات الرجاء للتحقق مما نبصر أمامنا ابصار غشاوة وكلال ، قائسين كل هذا على تجارب الماضى، مدفوعين اليه بما تخلق قوتنا التصورية ، وما يبدع الخيال . والطبيعة الانسانية فى تلك الحال ، حتى ان نجحنا فى النزول الى بسائط الارض ومضينا فى بحثنا الاستكشافى على أدق نمط ، لن تحررنا من الفكرات الثابتة فى عقولنا ثبوتا أوليا . تلك الفكرات التى تكون قد طبعتها فى عقولنا النظرات السطحيه التى ألقيناها على ماوقع تحت حسنا بادئ ذى بدء .بيد انها فكرات كثر ماتسوقنا الى طريق الضلال .

اما تكشف المعرفة ، وان شئت فقل تركزها ، فجائز ان ينقلب الى نواحى مثالية من المعرفة . والتاريخ ينفحنا بأمثال كثيرة من خطى التقدم الانسانى . فطالما مر على الانسانيه قرون استجمع فيها اسوأ ماتستجمع

العقول ، وأضل ماتنبت الافكار والافهام :ولكن لتتبعها عصور للتثقيف العقلى لم يلحق بها من أمثال الماضى مثال ، أو ليبرز بعدها من موات العقول، وجدب الفكر، استكشاف حديث ، أو اختراع رائع . ولقد صدت المذاهب الخداعه والخيالات البعيدة عن الواقع تقدم المعرفة ، وقعدت بهمة العاملين طويلا.فى حين أن هذه الخيالات الخادعة لاتنزح عن عالم الفكر عادة الا بعد عناء طويل ، وجهود معنتة . كذلك فتحت الآمال فى وجه الانسان ابواباً للبحث ومهدت له سبيل الدخول الى نواحى من المعرفه لم يألفها من قبل ، وقادته الى سماء من العلم ، لم يبلغها الانسان الا ليجد أن المعرفة الانسانيه قد تكثفت حول حقيقه بعينها ، أو مضت ضاربة فى المثالية الى حد الخيال . غير أنه تمر ازمان فى التاريخ يلوح لنا فيها أن تلك الثمار اليانعة ، والمنتجات الطريفة ، قد مضى بها النسيان ، وذهب بها الاغفال ، وتردت فى ناحية من اليأس الناتج عن الجهل ، أو غشاها من مغشيات اقنوط ؛مايلقى من روعنا خطأ انها ذهبت ذهاباً لاعود بعده .

ليس من شأننا فى هذا الموطن أن نبحث ان كان الفكر فى القرن التاسع عشر قد تعاقبت عليه صور من تلك الطرائق المتباينة . بل نكتفى هنا بالقول بان جهود الفكر خلال القرن التاسع عشر فى كلا الاتجاهين، اتجاه نشر المعرفة واستجماع أسبابها ، واتجاه تكثفها فى بورة مثالية ، كانت عظيمة ، ظاهرة الاثر ، بينة النتائج . أما فى الاتجاه الاول فقد فاقت كل مثيلاتها مما ترويه بطون الكتب وصفحات التاريخ . فى حين أنها فى الاتجاه الثانى ، ان كانت لم تبلغ حد المثالية الاغريقية فى عصر « بركليز » ـ Periclean age ـ ولم تبز النهضة العلمية فى ايطاليا

رونقا وبهاء ، ولم تفت من حيث الاثر والقيمة مستكشفات القرنين السادس عشر والسابع عشر فى فرنسا وانجلترا ، فانها قد أبرزت فى صورة من المصطلحات اللغويه أوجهاً من النظر وأساليب من البحث أقرب الى النفع المباشر للانسانيه رحماً ، وأبعث علي نشر المعرفه أثرا ؛ وكونت تصورا خاصاً تحيز فى العقول والافهام عما يعنى من امكان وحدة المعرفه العامة .

منذ زمان ليس ببعيد صرفت كلمة « حق » أو « حقيقه » Truth لتدل علي الغاية من المعرفة ، وعلى ماهيتها، لا على الطريقه المثلى والسبيل القيمة التى تتبع لاستيعاب المعرفه فحسب . « الحقيقه ، ولا شيء غير الحقيقه » ذلك هو المبدأ الذى تعلق بأهدابه الرأى السائد كقاعدة لاستيعاب المعرفة. اذ كان المعتقد العام أن الحق كله ليس بشيء سوى توحيد المعرفة أينما وجدت ، وحيثما اتفق أن تكون .

أما الآن فانى اعتقد أن الباحثين من العلماء والفلاسفه معاً ، لقانعون بأن حب الحقيقه ، اذ يدل دلالة صحيحة على نزعة العقل الى البحث ، الا أنه غير كاف لتحديد الاساليب التى تتبع للوصول الى المعرفة أو الى غاياتها العامه .

« ماهى الحقيقه » ـ هذا سؤال لم يعثر له العقل على جواب حتى الآن. يدل ذلك على أن الانسان لم يعثر بعد على دستور محكم يتخذه هاديا مرشدا للبحث وراء الحقيقه.

وانه ليكون من أبعث الاشياء على الحزن والاسى ، بل انه ليكون طامة كبرى ، ومصيبة مجتاحه ، لو ذهبت الفكرات الادبية الخاصة بالبحث وراء الحقيقة ؛ وصحة المقتعد ، من نفوس العمال الناشطين الى العمل ، ومن وجدان المفكرين المتوثبين الى البحث . غير أن علمنا بمستخزنات طبيعتنا

الادبية ، كحب الخير والصلاح ، وحس الجمال والشعر ، لا يبدأ فى الوجود بمجرد تعريفها ، ولا ينمو بتحديدها . ونحن فى سنى طفولتنا ، حيث نعدم القدرة على التفكير ، ان كنا نستوعب معانى تلك الحاسات الادبية من لغتنا ، فانها مع ذلك لمعان قلما تزداد فى نفوسنا غوراً وثباتا من طريق الفوارق المنطقية التى نستوعبها ، والتى تخضع لها عقولنا فى مستقبل حياتنا . ذلك لان المنطق لن يتناول الماهية بأثر ، فى حين أنه كثيراً ما يهدم من مقتعداتنا الرسيسه فى نفوسنا .

لقد تبدل العلم الحديث من متجه النظر للبحث وراء الحقيقه ، باسلوب قيم للبحث والتنقيب . وذلك الاسلوب لا يدرس الدرس الوافر الا بالاختبار والصبر على المشاهدة ، كما انه لا يستوعب بمجرد الوصف النظرى . كان أول ما وضع ذلك الاسلوب فى مؤلفات أولاء من ابطال العلم الحديث منذ عصر « غاليليو » ـ Galileo و« نيوتن » والعصور التاليه . أولئك الذين استمدوا من موحيات ذلك الاسلوب فنجحوا كل نجاح . ومن كتاباتهم وتواليفهم استمد الفلاسفه منذ عصر « با كون » Bacon و« كونت » Comte و« ميل » Mill تلك المهيئات التى توصلوا بها الى انتزاع الاسلوب العلمى الحديث من فوضى الماضى . ان الكلام فى هذه الاساليب سوف يستغرق الشطر الاعظم فى عنايتنا . على أننا سنقصر القول الآن على أن الغرض الذى ترمى اليه المباحث العلمية هو اطلاق حريه الباحث فى اختيار أية من الاساليب العلميه التى تلذ له . فان الباحث العلمى البحت لا يعرف الى أية نهاية سوف تقوده خطواته . انه يكتفى بأن يكون على علم بما بين يديه . ان العلم الحديث يحدد الاسلوب ويكتشف الوسيلة . ولكنه لا يعين الغرض ولا النهايه . انه قائم على علم العدد والاستنتاج .

وعلى الجمل قائم على الاساليب الرياضية . وتقدم العلم موقوف على ادخال اسلوب التفكير الرياضى فى الموضوعات التى تلوح على ظاهرها بعيدة عن علم الرياضة ، كما أنه مشروط على انتشار الاساليب الرياضية وتنمية القوة المصورة . ولديك اصطلاحا « تام » Exact و « يقينى » Positive فانهما يتخذان فى لغات القارة واللغة الانجليزية علي الاخص ، ليدلا على تلك الاساليب وعلي طريقة تطبيقها . ولقد يظهر لاى من أولائك الذين لم يعنوا أنفسهم بالاشتراك فى الانتاج العلمى ، ان الباحث باتباعه أسلوبا محدوداً غير قابل للتحوير الا فى مفصلاته دون طبيعته ، أو بالجنوح الى نواحى من البحث تسوق الى شعب من المعرفة ، ان كانت محدودة بينة ، الا أنها تذهب فى تشعبها الى لانهاية ولا آخر ، يفقد يوما بعد يوم تلك الفكرات العليا فى العلم ، ويعدم صفة التركز والتكشف العلمى ، وعلى الجملة يخسر كل النزعات المثالية التى توحد المعرفة : تلك الاشياء التى يلوح ان تفوق المعرفه وتقدمها موقوفان عليها . هذا أمر محتوم ان يطرأ على فكر كل من عكف على الاراء والاساليب القتيعة . أما اليوم ، فى عهد الرقى الحديث ، فان وحدة المعرفه ، ونظامها وألفتها ، وكمالها وتناسق صورها الظاهرة ، والحقيقه والجمال ، ليست بأشياء تقع فى سبيل الباحث العلمى ليتخذها قواعد مباشرة لبحثه . وليس لها فى نظره من قيمه أكثر من قيمة تلك الاسرار الخفية السحرية التى كانت تنسبها بعض مدارس الفلسفة للاعداد * . على أننا ان كنا لا نزال نعيش مأخوذين بفتنة تلك

---

* فيثاغورس ومدرسته أول من نسب للعدد خواص سرية فى عصور الفلسفة اليونانية .

الاشياء وأمثالها ؛ وعلى أننا نعمل جهد مانستطيع لنخلص من مؤثراتها النفسية ، فاننا مع هذا يجب ان نسلم بأن مافى طبيعة الاشياء من صبغة الشعر والفلسفة والدين ، قد أخذت تفقد شيئاً فشيئاً تأثيرها فى عالم العلم . انها لا ترسم للبحث العلمى طريقا . ولا تفرض عليه أسلوبا من أساليبها . لقد أصبح العلم بلا حاجة لان يستمد منها العون والمساعدة . ولكننا يجب ان نتساءل هل خسر الطرفان بانبتات صلتهما شيئا ما ؟ أما العلم ففى مستطاعه أن يفخر بأنه قد بلغ بذلك الانفصال درجة من الكمال الشكلى ، ونال قسطاً من التقدم والارتقاء ، عدمها طوال القرون الاولى .

ليس ذلك وحده ماوصل اليه العلم من هذه الطريق . فانه قد ربح شيئا لم يعهده خلال العصور القديمة والقرون الوسطى . ذلك الربح ينحصر فيما وقع من وجوه الارتباط بين العلم وبين أوجه الحياة العملية . ان تلك الروح الرياضية التى حكمت بأمرها فى أساليب العلم وقواعده ، أصبحت كذلك الحاكمة بأمرها فى التجارة والتبادل والصناعة ، وهى آخذة اليوم فى التغلغل الى المهن كالطب والقانون والادارة . لان هذه الوظائف الاجتماعية قد أصبحت فى العصر الحديث ذات آصرة وصلة بالاعداد والمقاييس والموازين ، وبامتدادات الزمان والمكان ، حيث أضحى من مقتضيات وجودها أن تلجأ الى أساليب من الاحصاء والنسبة . وهى أشياء لن نستطيع بغيرها أن نحقق مخادعات الاقتناع الذاتى أو نزعات الافراد الفكريه ، من طريق عملى . كذلك لايجب علينا أن نغفل عن أن المسائل المطلوب من العلم حلها ، قد زادت وتكاثرت بنسبة عظيمة . فان كل تقدم يقع فى العلم ، ان أعطانا قوة جديدة نتسود بها على ظاهرة من الظاهرات فى عالم الحياة ، فان كل نما يقع فى عالم الحياة يخلق لنا أوجها جديدة من

البحث العلمى تطالبنا الضرورة بفض مشكلاتها . فان العلاقه بين العلم والحياة قد زادت خلال القرن التاسع عشر ترابطا واتصالا . وهذا أمر ابلغ ما كان أثراً فى الموازنة بين الخطوات التي خطتهـا الاساليب العلمية الحديثة . فان هذه الاساليب ان تركت لتمضى حرة من مؤثرات الحيـاة فيها ، لادت الى أوجه من التخصص لانهـاية لها . لان من خصـائص المسائل العملية أنها لن تستقل عما يحيط بها. على العكس من الاختبارات العلمية . ذلك لان المسائل العملية فى الحقيقة تلزمنا ضروة الانتباه الى كثير من الظروف والحالات المحيطة بنا . وان نلقى بنظرنا دائما على الحياة، لا فى مفرداتها ، بل فى مجموعها ، وأن ننظر فى حاجاتها ومقتضياتها .

اذا فخر القرن التاسع عشر بأنه وضع أساليب ايجـابية تامة احتذاء العلم ، واتخذت فى الحياة مناراً وهدياً ، وانه ضاعف من قيمة العلم ، وزاد من خطر الحياة، فما زال أمامنا سؤال لانجد لأنفسنا عذراً فى اغفاله . نتساءل ألم ينتج القرن التاسع عشر من نتاج يحفظ علي تلك المثانيات القديمـة التى ناء عليها الزمان شيئا من قيمتها : مثاليات الحقيقة والجمال والحـكمة ، تلك التى أخـذت فى القرون الأولى على أنها أساس الوحدة فى العلم والحياة ، وعلى أنها مبدأ الألفة المنبثة فى تضاعيفها ؟ وماذا جرى على الفلسفة ، والفن ، والدين ؟ وهى التى أمدتها المثالية الفـكرية بكل عنايتها ، وحملتها عبء القوامة على كثير فى فروع المعرفة والعمليات ، أن ينفرط عقد وحدتها، وتتصـدع حزمتها ، وحصرت فيها كل الامل لتنجى النوع البشرى من خطر التطوح الى انكار أوجه الترابط وضروب التعاون ، الواقعة بين كل لحاجات الانسانية ؟

اما اذا كان قد ثبت فى يقينى ومعتقدى ان القرن التاسع عشر لم يكشف

من تصور أبعد خطراً من التصور القديم أزاء الوحدة التى تربط بين الحاجات الانسانية ، وأزاء الحياة الكامنة فى الانسان ، وفى النوع البشرى كله ، لما فكرت ساعة واحدة فى ان أمضى فى اتمام مؤلفى هذا . لان غايتي منه تنحصر فى ان أكشف عن أوجه التعاون التى ربطت بين كثير من العوامل والبواعث خلال القرن التاسع عشر ، فى عالمى الفكر والعمل . أريد ان أظهر به حقيقة ذلك الاعتقاد الحق الذى يسوقنا الى التيقن من ان كل المجهودات العقلية لابد فى ان تتحد معا لتنتج الملكات المثالية التى خص بها النوع الانسانى ، وتقوم حفيظة عليها . أود أن أثبت فيه ان ذلك الكنز المقدس لايحتفظ بما فيه ولايزيد مستخزنه ، مجهود فرد بعينه ، أو متجه بذاته يتجه فيه الفكر ، بل ان بقاءه ونماءه مقصوران على ان تتعاون الافراد والأمم فى حياتهم الشعوبية العامة المشتركة ، على ان يصلوا به الى تلك الغاية.

لقد دخل على اللغات خلال القرن التاسع عشر عدة من المصطلحات نحتها واضعو المذاهب الفلسفية لتدل على تلك الوحدة الكائنة فى صميم الحياة الكامنة للنوع البشرى. استعمل « هيجل » كلمة Geist أى فكر. واستعمل « كونت » كلمة « Humanity » أى انسانية . واستعمل « لودز » كلمة Microcosm أى العالم الأصغر ، ويعني به الانسان . واستعمل « هربرت سبنسر » كلمة « Social organism. » أى الكائن الاجتماعى . استعمل كل منهم اصطلاحاً مختلفاً . ولكنها فى الحقيقة لم تكن الا أوجهاً مختلفة لموضوع واحد . وانه لمن أخطر مظاهر الفكر ان نلحظ كيف ان مدارس المثالية الكبرى فى ألمانيا ، ومدرسة العلم اليقينى فى فرنسا ، ومدرسة النشوء ، العقلى والطبعى ، فى انجلترا . على الرغم مما يلوح فيها من روح التحليل ، لامن روح التوحيد ، قد اشترك جماعها مع الانقلابات الاجتماعية ، مشفوعة بالثورة الفرنسوية

العظمى ، وبتخصيص العلم ، فى الاحتفاظ بوحدة الحياة الانسانية ، والقوامة على حاجاتها ومطاليبها .

***

الراجح عندى أن كلمة « فكر » Thought قابلة لان تطبق أوسع تطبيق ، وفيها من الخصائص مايجعلها تدل على أية حقيقة أو تقييم عقلى قد تحويه تلك الاغراض المتحدة ، وتلك المحاولات التى تنبئها آمال العصر الحديث . على أنى أعتقد مع هذا ان وضع تاريخ لتلك الفكرة ، يكون بمثابة وضع تعريف جامع مانع للفكر فى مجموعه .

ولقد صرف كثير من الجهد خلال القرن التاسع عشر فى سبيل الوصول الى غرض يشابه غرضى هذا : لذلك أرى أن تناول تلك الناحية الخاصة من الادب الحديث ببحث موجز ، لايخلو من فائدة ونفع .

لست أشك فى أننا قد قضينا عصر البحث الانسيكلو بيذى فى تحرى المعرفة . لقد غشى العصر الانسيكلوبيذى الفكر قرنا كاملا ، من أواسط القرن الثامن عشر ، الى أواسط القرن التاسع عشر ، أى من عام ١٧٥٠ الى عام ١٨٥٠ .

على ان الفكرة فى ترتيب المعرفة على النمط الانسيكلو بيذى ترجع الى زمان أبعد من هذا . ترجع الى الزمان الذى عقب تمخض الفكر عن الاسلوب العلمى الحديث .

ان اللورد « با كون » لاول واضع لذلك الاسلوب . غير أنه عجز كما عجز أكبر عقل أنسيكلوبيذى انبته العصر الحديث ، وهو عقل « ليبنتز » Leibniz عن أن يبلغ الغاية من تحقيق الغرض الاسمى من تلك الفكرة ، وظل تحقيقه مبقياً لنبوغ « ديدرو » Diderot وعبقرية

« دالمبير »D'Alembert فى فرنسا ، خلال القرن الثامن عشر ، فاخرجا ومن تبعهما من العظماء ، ، الى حيز الواقع ، مارسمه « با كون » فى كتابه « النظام الحديث »Novum Organum فى حيز النظر ، واستجمعا كل المعرفة ، التى ذاعت لعهدهما منذ أن خلص العلم من مؤثرات اللاهوت ، ووضعاها فى كتاب واحد محبوكة اطرافه ، متواصلة حلقاته .

لقد كان للانسيكلوبيذيين من عملهم غرضان : الاول نشر المعرفة : والثانى تحقيق أن المعرفة الانسانية عبارة عن كل لاتنفصل اجزاؤه : أما الغرض الاول ، وهو الناحية العملية ، فقد صادف نجاحاً . وأما الغرض الثانى ، وهو الناحية الجوهرية من فلسفتهم ، فقد أطرح وتنوسى تدرجاً على مر السنين .

لقد أشار « ديدرو » و« دالمبير » الى وحدة الفكر والمعرفة :الأول فيما كتب تصميما للأنسيكلوبيذية — موسوعة المعارف Prospectus والثانى فى المقدمة Discours preliminaire ، واشير اليها فى تمهيد موسوعة « ارش » Ersch « وجروبر » Gruber العظمى ، وكذلك فى مقالة« كوليردج »المشهورة فى علم الاسلوب التى كتبها« للانسيكلوبيذية العالمية» Encyclopedie Metropolitana — غير أن نتيجة كل هذا الجهد قد أظهرت ماخفى على لورد « با كون » ، من أن تقسيم المعرفة تقسيما تراعى فيه قاعدة ما من قواعد المنطق ، أو يستهدى فيه بالخصائص التاريخية التى لازمت بدايات كل فرع من فروع المعرفة الانسانية ، لن يحتفظ فى النهاية بوحدة المعرفة ، ولن يسلم الى بقائها كما واحدا . فان العمل فى سبيل تقدم العلم والمعرفة ان أصبح مفرقا على عدة علوم مختلفة ، ووكل به الى كثير من الباحثين يستقل كل منهم بجهة منه ، فانه لن يظل محصوراً

فى دائرة محبوك طرفاها ، بل يخرج الى سلم حلزونى يزداد اتساعا كلما ازداد ارتفاعا ، ويفترق عن أصله الذى يرتكز عليه تدرجا كلما امعنت حلقاته فى التزايد . ذلك هو الاثر الذى تتركه فى نفوسنا نظرة تأمل نلقيها على المجلدات التى خلفها « ارش » « وجروبر » غير كاملة ، وهو بذاته الأثر الذى تخلفه فى يقيننا معرفتنا أن مؤلفات عمرنا بما فيها من الفوائد العظيمة وقربها من متناول العامة ، قد قضت القضاء الاخير على تلك المقدمات الفلسفية والمحاورات التمهيدية ، التى كانت تصدر بها الكتب فى الماضى ، لا لشىء الا ليتحفظ من طريقها المؤلفون بظل من الوحدة والاسلوب ، والتى رضى مؤلفوها بأن تكون معاجم للمراجعة لاغير . ولقد دلت طريقة صوغ المعرفة على النمط الانسيكلوبيذى ، وهى ليست الا تنفيذاً لنظرية لورد « باكون » ، على أن انتشار العلم وتطبيقه عملياً ، شيئان لابد من أن يسوقنا الى تحليل المعرفة والفكر ، لا الى توحيدهما . ومما لامرية فيه ان قيام اعتقاد مشابه لهذا الاعتقاد فى يقين علماء ألمانيا كان السبب الذى حدى بالجامعات الالمانية الى القاء المحاضرات التى كانت تلقى فى الانسيكلوبيذية . ولقد ذاع القاء تلك المحاضرات وعم تدريسها فى فجر القرن التاسع عشر ، عند ما خضع التعليم لتأثير « كانت » Kant « وفيخته » Fichte « وشليرميخر » Schleier macher فأحدث ذلك عصراً جديداً سادت فيه فكرة أن وحدة المعرفة وكمالها ، وتعميمها ، اموريمكن أن يبلغ اليها من طريق توحيد طرق الدرس وتنظيمها على نموذج واحد . ذلك العصر هو آخر عهد الفلسفة بالقبض على خناق كل فروع المعرفة ، وبصدها البحث العلمى عن الانبعاث فى طريقه القيمة . تسودت الفلسفة هنالك عند ما أيدتها الحوادث السياسية ، وزكتها الاغراض المثالية الخيالية ، وعاونتها روح كريمة من التضحية الذاتية ، ممسوسة بشعور قيم

أوحى الى أبناء ألمانيا أن عليهم لامتهم واجباً واحداً القيام به مشروط على تعاونهم. وكان أظهر ما فى ذلك الشعور انضواء فلاسفة ألمانيا وباحثيها الاعلام تحت لوائه، والاذعان لموحياته.

وكان لانتشار تلك الروح أثر عظيم فى خلق صورة من التعاون المتبادل، لا يدانيها خطراً ومكانة، الا تزكيتها لفكرة وحدة المعرفة، فمهدت لكثير من المذاهب الفلسفية، التى خيل للناس أن فيها من الفوائد أكثر مما فى استطاعتها أن تنتج، سبيل الانتشار والذيوع. هنالك ألقى فى روع الناس أن أسفار الانسيكلوبيذية شىء أكبر خطراً من تلك الصدفة الفارغة والهيكل الاجوف الذى رآه فيها أبناء العصر التالى. ظن ان فى تلك الاسفار قدرة على نشر المعرفة، والاحتفاظ بها كماً حياً، فائضاً بالوحدة والقوة. هذه الصورة الفكرية، التى سوف تستغرق قسطاً كبيراً من انتباهنا، قد محيت الآن. فانك لن تقع فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر، على ماهية المعرفة تركزت فى قاعدة فلسفية، أكثر من وقوعك على وحدة الفكر وتماسك أطرافه، فى مقالات متفرقة مرتبة على حروف الهجاء، وليس فيها من معنى الوحدة، الا ضمها معاً بين دفتى كتاب واحد. لقد كان الغرض من تلك المعجمات الانسيكلوبيذية غرضاً عملياً بحتاً. كان الغرض منها وضع وسيلة قريبة الفائدة لنشر المعرفة، لم يراع فيها تقسيم الفلسفة الا تقسيماً شكلياً، ولم تنتج من فائدة الا فى أضيق دوائر البحث والاسترشاد.

ان عصر الدرس على الطريقة الانسيكلوبيذية، وذلك العصر القصير الذى نمت فيه « الشكلية الفلسفية » Philosophical Formalism لعصران يلوحان لنا كأنهما تابعان للماضى. غير أن « الرغبة » فى توحيد المعرفة وجمعها فى بورة واحدة، وتحقيق الصلة الكائنة بين الفكر وبين

الارتقاء ، قد بلغت غاية لم تبلغ اليها خلال العصور الاولى . فلا ضخامة المعاجم الشوهاء ، ولا اتخاذ القواعد النظرية الجوفاء على أنها تامة كاملة ، لترضى اليوم ذلك المعتقد العميق الذى تعمل كل النواتج العقلية على انمائه ومده بمهيئات الحياة : اعتقاد ان الانتاج العقلى كائن حى متحيز الشخصية لانهاية لتنوع صوره ، ولا غاية لاختلاف مظاهره وأشكاله . ولقد ثبت فى روع الباحثين أن بعث الفكرات الفردية من خمودها ، واستحداث صور الحياة والتغير ، ضرورة أوليه ، كضرورة العكوف على اسلوب ما ، او انتحال مذهب بعينه ، او اتباع نظام بذاته . ولقد سهلت هذه الفكرة خلال الخمسين عاما الفارطة سبل التبادل العقلى بين الامم ، وهونت على الكاتبين تدوين أوجه النشوء التى وقعت فى تاريخ فروع العلم والمعرفة .

ولقد أمدت عوامل كثيرة ذلك الغرض الأولى بمهيئات النماء . فالفرنسويون الذين كانوا فى أول ذلك العهد اساتذة العلم ، بدأوا اجتياز السبيل بتأسيس عدة من المجلات الدورية تعنى كل منها بفرع من فروع العلم المختلفة تنميه ، وتتعهده ، وتقوم عليه حفيظة ، وعلى بقاء كفيلة . ومن ثم تبعهم الالمانيون . ومن بعدهم الانجليز . ولقد زاد تبادل الفكرات العلمية بين الناس ذيوعاً ، منذ أن تأسست « جماعة تقدم العلوم البريطانية » سنة ١٨٣١ . وكان « أوكن » Oken قد اسس جماعات شبيهة بالجماعة البريطانية قبل ذلك بعشر سنوات فى المانيا . غير أنه كان لالمانيا اكبر الاثر فى اصدار الموسوعات السنوية الخاصة بتقدم العلوم ، حيث كانت تنتقد المباحث العلمية ، من غير اعتبار لمصادرها الوطنية ، ثم تقسم وتبوب على قاعدة وضع فروع العلم المختلفة كل منها فى حيزه الخليق به فى كفاءات العقل الانسانى .

ولقد قام فى النصف الاول من القرن التاسع عشر فى المانيا حركة انتفاض ضد الطريقة التى كانت تعالج بها الموضوعات العلمية على قاعدة ميتافيزية - غيبيه - تلك الطريقة التى بالغ فى اتباعها مدرستا « شيلنج » و « هيجل » ولقد ساعد اقتباس أساليب الاختبار والمشاهدة على الأسس التى دعمها الفرنسويون والانجليز ، كما عاون تأسيس المعامل الكيمية ، والمراصد الفلكية ، والسياحات الطويله التى انفقها الباحثون فى سبيل الاستكشاف ، وتطبيق القواعد العلميه فى الانتاج الصناعى ؛ على استجماع كثير من مواد المعرفه العامة .

ولقد اخذ الباحثون منذ زمان مضى يفقدون الثقة بكل المحاولات التى أريد بها تركيز المعرفة وتوحيدها ، حتى فى مجال الاستنتاج العقلى التام المحرر عن نزعات الغيب وما وراء الطبيعة . فكانت نتيجة ذلك ، وعلى الاخص فى المانيا ، أن منتجات كثير من العلوم أصبحت تدفن بين صفحات المجلات الدوريه ، وفى المذكرات التى اعتادت الجماعات العلميه حفظها فى مكاتبها . أما المتون العلميه فأخذ يكتبها مؤلفون من الطبقه الثانيه ، او ينقلها عن الانجليزية والفرنسويه مترجمون ، احتذوا فى نقلها طرقاً عتيقة بالية . ولقد اختصت بضعة عقول فياضة كبيرة بيث تلك الروح التى خمرت البحث العلمى فى أواسط القرن التاسع عشر . وتلك عقول كبيرة ظلت غير معروفة خلال ذلك العصر ، شأن العقول التى تظهر فى أزمان لاتلائمها . على ان ثلاثة العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر ، قد كفلت تغيير ذلك كله . فان وسائل الاتصال بين الباحثين ، التى أدلينا بالكلام فيها من قبل ، جعلت انبتات اسباب التواصل فى العلم امرا مستحيلا . فدعت الضرورة اذ ذاك الى التبدل من النظام القديم الذى ظل متبعا فى برامج

التعليم الادبى فى معاهد العلم ، بآخر اكثر انطباقاً على الاساليب الحديثة . وتطوع كثير من اصحاب العقول الفذة لكتابة متون صحيحة فى العلوم التى كانوا يعالجونها . فأدى ذلك الامر الى اصلاح كثير من وجوه الخلل الذى ساد تلقين العلم فى المعاهد العليا . وفى الوقت ذاته ، وبعد مضى خمسين عاماً انفقها الباحثون فى البحث الاختبارى واستجماع مواد المعرفة الاوليه ، شعر العلماء بضرورة النظر فى المبادىء الاوليه التى بنى عليها التفكير العلمى ، نظرة نقد وتحليل . عثر الباحثون اذ ذاك على روح خاصة من الفلسفه ، لا من الغيبيات وما وراء الطبيعة ، ممزوجة بحدود العلم الصحيح مندمجة فيها . فانك فى العلوم المجردة الصحيحه ، وعلى الاخص فى الرياضيات ، تجد ان التقدم الحقيقى مرهون على استكشاف اساليب بسيطة أولية ، وطرق لمعالجة تلك العلوم تامة النفع قريبة التناول ، كما انه موقوف على الكشف عن المبادىء التى تحقق وحدتها ، والمشاهد التى تضمن تعميمها .

كل هذا ليس بشىء سوى علائم الحياة الحديثة ، ودلائل التقدم والارتقاء النشوئى . أما السبب الكامن ونتيجته ، وتغير اساليب التفكير التى ظلت مختفية وراء تلك المشاهد الظاهرة المحسوسة ، فسوف تكون موضع عنايتنا من البحث فيما بعد . فان تلك الاساليب والكشف عنها وبحثها ، هى فى الواقع الغرض من كتابى هذا .

ان الرغبة الصحيحة فى البحث عن البواعث الخفية الكامنة فى عالم الفكر ، كانت أكثر ظهوراً فى تلك الامة التى أخذت فى العصر الحديث قياد التفكير الفلسفى فى أوروبا ، وأعنى بها المانيا . يدلك على ذلك المؤلفات التاريخية الضخمة التى خصها كبار المؤلفين فى المانيا بتتبع درجات الرقى والنماء اللذين مضى فيهما العلم الحديث . والظاهر أن البحث التاريخى قد

حل فى المانيا — فى أواخر القرن التاسع عشر — محل الاكباب على التأمل الغيبى ـ الميتافيزى . وقد تقع علي شيء من الانتقال من الاسلوب المنطقى الى الاسلوب التاريخى فى منتجات العقل الانجليزى خلال القرن التاسع عشر . كان « دافيد هيوم » David Hume. قوام ذلك التغير ، اذ بدأ بدراسه المسائل الغيبية — الميتافيزية — التى وقع عليها فى كتابات « لوك » Locke « وبركلى » Berkeley ومهنا تطرق الى درس معضلات الاخلاق والسياسة والاقتصاد ، وانتهى من ذلك بان وهب نفسه الى دراسة التاريخ . ولم يكد يختتم « هيوم » صفحته، حتى ذاعت المباحث التاريخية فى انجلترا ، ذيوع المؤلفات الغيبيـة واللاهوتيه فى فجر حياته . أما العوامل التى أدت الى الانتقال من الاكباب على المباحث الغيبية، الى الاساليب التاريخية فى المانيا ، فمشابهة لتلك التى أدت الى ذلك فى انجلترا خلال القرن التاسع عشر.

وبينما كانت المباحث التاريخية آخذة بزمام العقول فى المانيـا ، بل قضت القضاء كله على « الفلسفة النظامية » Systematic Philosophy أى الفلسفة ذات القواعد المرسومة، انتجت انجلترا لأول عهدها فى تاريخ التفكير العقلى مذهباً فلسفياً . ذلك المذهب الذى ابرزه العلامه الكبير « هربرت سبنسر » H. SPencer ، وحاول أن يثبت فيـه أن الغرض من الفلسفة « توحيد المعرفة » على أن من الحقائق الخطيرة فى تاريخ الفكر تلك الحقيقة التي سوف نصرف فى سبيلها شطراً عظيما من عنايتنا . ان مبدأ « توحيد المعرفة » الذى بثه « سبنسر » فى ذلك المذهب ، مبدأ تاريخى ، وهو فى قوامه عبارة عن طريقة من النمأ التـدرجى ، تعرف الآن باسم « النشوء » Evolution. يكون هـذا المذهب فى مجموعة فكرة مناقضـة

للفكرة التي بثها « هرمان لودز » Hermann Lotze. — فى آخر مذهب فلسفى من المذاهب العظمى التى ظهرت فى المانيا . فكل المذاهب النشوئية اذ تقضى بان وحدة الاشياء تاريخية صرفة ، وأن هذه الوحدة يجب أن يعود الانسان فى بحثها الى أصل اولى عنه نشأت ، اذا بك تجد أن « لودز » قد حاول أن يثبت أن الحقيقة تنحصر فى الاعتقاد بان لوحدة الاشياء وجود ثابت ، وأنها مبدأ موجود فى كل الاشياء المفردة . وليست كما يقول النشوء ، عبارة عن حلقة تربط بين الموجودات بمقتضى الزمان والمكان

كان الغرض من مذهب « لودز » الوصول الى جواب ، اذا تساءلت كيف يستحضر العقل الانسانى لنفسه وحدة كائنة حية كوحدة الموجودات ؟ ومن طريق أية من الفكرات التي ينبتها الفكر الانسانى نستطيع أن نصل الى تلك الوحدة ؟ وبأية من الكلمات التى تتضمنها اللغات الانسانيه يمكننا أن نعبر عنها ؟

ان كلا من مذهب « سبنسر » فى النشوء ، ومذهب « لودز » فى « العالم الاصغر » Microcosmus. ويعنى به الانسان ، يرمى الى اثبات « وحدة الفكر » ، واحداث ذلك التصور الذى يسوق الى الاعتقاد بان الاشياء تحتفظ ببقائها ، وان الحوادث الكونية تقع ، خضوعا لعلاقة واقعة بينها يمكن ادراكها ، وأن وجهة النظر الدينى والعلمى فى هذه الحياة يمكن التوفيق بينهما . ولكنك تلفى أن « سبنسر » اذ يمضى مقتنعا بأن الوحدة الكائنة وراء عالم الظواهر لا يمكن معرفتها ، وينصرف الى دراسة الطريقة التى تحدث بها ظاهرات الكون ، وتنشأ بها الموجودات ، والافصاح عن حقائقها ، تجد أن « لودز » يعتبر أن ذلك القسم ، الذى صرف اليه « سبنسر » كل همه ، ليس من مجموع الفلسفة الا مقدمة وتمهيداً يسلم الى

حل « المعضلة الحقيقية ».

يرى « لودز » أن أية طريقة من طرائق النشوء والنما ليست سوى الثوب الظاهرى التى تلبسه المادة الحقيقية : أى عبارة عن اسلوب ميكانيكى « آلى » ينتج به شيء آخر أثمن قيمة وأبعد خطراً.

ويعتقد « لوذر » فى تأثير تلك الآلية ـ الميكانيكية ـ تأثيراً عاماً شاملا. غير أنه يحتم فى الوقت ذاته ضرورة العثور على المادة ذاتها، والحصول على فكرة فى الغاية أو الحد الذى يمكن ان يبلغ اليه الانسان من هذه النظامات المتتابعة المتواصلة ، او تلك الوسائل الآلية المنظومة التسلسل ؛ كما أنه يحض على العثور على النتيجة التى قد يتسنى البلوغ اليها . ويقول « لوذر » اننا اذا عرفنا الوسيلة الآلية التى يتم بتأثيرها غرض من الاغراض أو فعل من الافعال ، استطعنا ان نقدر الظاهرات الطبيعية ونزنها رياضياً. غير أننا لكى نستوعبها عقليا ونتفهم طبيعتها ، نحتاج الى ضروب أخر من المعرفة تنصرف الى تقدير قيمة الفعل او الغرض الذى تنتهى اليه ، والنتيجة التى نجنيها من تقديرنا للظاهرات . يقصد بذلك « لوذر » أن مقدرتنا على تتبع الحالات الميكانيكية التى تبنى عليها دقة سير الساعة شيء ، وأن تحديد الوقت الذى تعينه لنا وضبطه شيء آخر . على أن حب الاستطلاع قد يقود طفلا الى الايناس بالشيء الاول . فى حين أن الشيء الآخر ، يتوقف على تقديرنا لحاجات الحياة وأغراضها ، وعلى عظم ما نحمل من مسؤوليات الواجب .

عند ماشرع « لوذر » فى كتابة مؤلفه « العالم الاصغر » Microcosmus. نبه الاذهان الى كتابين آخرين يمت موضوعهما لموضوعه باصرة ونسب . عمد الكتابان كلاهما ، على اختلاف فى النهج والطريقة ، الى ايجاد فكرة

تامة يدركها العقل عن عالم عظيم من الظاهرات المبددة ، يسلم بك اذا ماتظرت فيه الى عالم من الحقائق . أما الكتاب الاول فمن نواتج القرن الثامن عشر . قصر البحث فيه على التاريخ وعلى نواة الترابط الكائن بين أوجه النشوء الانسانى . لقد أعطى «هردر» Herder . ان لم يكن قد ابتكر ، نوعا من الخطورة والشأن خص به اصطلاح « الانسانية » Humanity قصد به وحدة تربط بين كل الحاجات الانسانية ، سواء أفى نشوئها الاجتماعى أم التاريخى . وتلك فكرة مضت مستبدة بنواتج العقل الالمانى منذ عصر « ليبنتز » Leibnitz . وأما الكتاب الثانى فكان مؤلفه « اسكندر فون همبولد » A. von. Humboldt الذى لم تغادره فكرة الوحدة الحاكمة فى كل الموجودات خلال كل أدوار حياته التى ملئت بمختلف صور الجهد ، فانفقها حينا مكباً على درس الطبيعة درسا عميقاً ، وحينا آخر مستغرقا فى تقييم النتائج التى تترتب على أساليب البحث العلمى الحديثة ، وحاز فى كلتا الناحيتين مكانة وشأنا . ولقد استعان « فون همبولد » بمتانة من الاسلوب وسلالة من التعبير ، امتزج فيهما الشعر بالعلم ، ليخرج من قلمه فى صورة كتاب ألفه فى أصيل حياته ، كشف به لانظار قارئيه ودارسيه عن صورة من صور الطبيعة العظمى ، كما تخيلها عقله الكبير من قمم العلم المشرفة على اللانهاية ، وكما رأتها عيناه من مرتفعات «شمبورازو» .

فى وسط تلك الصورة التى صورت بها الطبيعة ؛ وفى جوف التغيرات التى تنتاب الكون ، أين يوجد « الكون الاصغر » ؟ Microcosmus طرأ هذا السؤال بالضرورة على عقل « لوذر » فهو لذلك يقول ـ « ليس هو ذلك الكون الاعظم الذى نريد ان نصفه مرة أخرى على النموذج الذى عرفناه من قبل فى ألمانيا . فان صور هذه الدنيا العظيمة اذ تنزل الى

أعماق سحيقة من الادراك العام ، فهى لذلك ترجعنا الى نفوسنا تارة أخرى لنعاود التساؤل : أية قيمة لحياة الانسان والانسانية، بمافيهما من الخصائص الخالدة ، وبما فى تاريخهما من أوجه التغاير وسط هذه الطبيعة فى مجموعها ؟ على أن « لوذر » بعد أن جمع كل مايمكن ان يكون جوابا لهـذا السؤال ، عاد الى الاعتراف بأنه لم يصل الى شىء الا الى تجديد الفكرة التى بدأها « هردر » فى كتابه « فلسفة التاريخ » .على ان كلا من كتاب « هردر » و كتاب « لودز » لتابع لذلك العصر الذى أثرت فيه الفلسفة والشعر على العـلم والتاريخ أبين الأثر .

وقد يظن الكثيرون أنه من المستحيل ، او على الاقل من المتعذر بحكم الزمان، ان يجمع الانسان بين منتجات العلم والتاريخ الحديث ، ليخرج منهما بذلك الغرض الذى ندب اليه الفلاسفة وامتدحه الشعراء ، او أن يدلف بقدمه فى مجاهل ذلك التيه الذى تمثله الظاهرات الطبعية المحسوسة والحوادث الكونية ، ليصل الى مايختفى وراءها من الوحـدة والعظمة . ذلك لانهم بينما يسلمون بوجود قوة شاملة تامة تختفى وراء عالم الظواهر تسليما مطلقاً ، اذا بهم يقصونها كما فعل « سبنسر » الى العالم « المجهول »

لاأرانى فى هذا الموطن محتاجاً لان امضى فى نقد تلك الاعتبارات التى ساقتهم الى وجهة من النظر بالغة اقصى حد من الاعتـدال والاذعان للغيب . ولهذا أريد أن أقصر بحثى فيهم على طريقة محدودة ، وقد أكون غير مسبوق بها ، تتناول النظر فى صحة معتقدهم الذى يلقى فى روعهم أن استيعاب الظـاهرات وحادثات الكون استيعاباً صحيحاً ، لن يأتى الامن طريق النظر فيها من جهة تواصل أسـبابها ، ومن طريق نتائجها الكلية . واذا كان ثمة فى عالم الطبيعة والحياة العقلية من شىء يحق لنـا أن نسلم بأن

فيه وحدة ، وانه مجهول غير مرئى . فهو بلا ريب الفكر الانسانى : بما فيه من شعب ومفاوز ، وبما له من منتجات ومظاهر . فان محاولة يراد بها تتبع أصله الذى عنه نشأ فى متروكات المدنيات التى قامت خلال العصور الاولى ، أو محاولة يقصد بها صده عن الغاية التى يسير نحوها درجة بعد درجة ، كلتاهما محاولة بالغة أقصى حدود الاستعصاء . وغاية ما نستطيع أن نقول اننا أكثر علماً وأعمق معرفة بعصرنا الذى نعيش فيه وبمختلف صور الادب ، وضروب الانتاج العقلى ، التى شهدنا نشوءها خلاله . فقد استطاع الفلكيون أن يصلوا الى معرفة مقدار أكثر المدارات اتساعا وابعدها مسافة ، بجزء ضئيل من مدار سيار وقع تحت حسهم وتناولوه بالدرس والاستقصاء . وأقرب مثال على ذلك استكشاف « بيازى » Piazzi للسيار « سيريز » Ceres فى « باليرمو » فى أول ليلة من عام ١٨٠١ . كذلك تجد أن « تشريح المقارنة » Comparative Anatomy قد علمنا كيف نستطيع أن نقف من بضعة بقايا مستحجرة على تركيب كائن عضوى ، وعلى مفصلات تكوينة برمتها . على أن غايتي من ضرب هذه الامثال ، أن أطبق قاعدتها الاولية على جزء صغير من نواحى الارتقاء العقلى ، هيىء لى أن أكون على علم بها ، وشعرت بما كان لها من أثر فى نفسى . فان تتبعنا ، على وجه من الدقة والضبط ، ذلك الشطر الصغير من الفكر الاوروبى ، قد يكون بابا نلج منه الى حيث نستكشف صورا أبعد دقة وأكثر صحة . فى حين أن هذه تصبح وسائل نتخذها سبيلا للحصول على فكرات أثمن من سابقتها قيمة ، وأتم نفعاً وأشد ضبطاً ، فى الكشف عن خفيات الحدود القصية المشعبة الخاصة بالحياة العقلية للنوع الانسانى .

لا تنحصر هذه الحياة فى استجماع ضروب المعرفة التى استجمعت

خلال القرن التاسع عشر ، ولا فى نتائج البحث العلمى التى تضمها جدران المكاتب والمتاحف العامة ، ولا فى مدارس التلقين الاولى ولا معاهد العلم العليا ، ولا فى الاصلاحات الاجتماعية ولا ترقية أساليب التربية . وهى أقل ماتكون ظهوراً فى النظامات السياسية والاقتصادية . ان هذه جماعها الأشياء خارجة يمكن ان توصف أو تصور ، شأنها فى ذلك كشأن ظاهرات الطبيعة المحسوسة . أما حياة النوع الانسانى العقلية فمحصورة فى أساليب التأمل الخفيه التى أمكن بها استيعاب تلك الأشياء الظاهرة ، والتى استطاع بها الانسان أن يضيف الى مبدعات الطبيعة ، خلقاً جديداً خاصاً به . وبها تسنى له ان يغير من وجه الارض ويبدل من نظامها ، وان يخص كائنات الطبيعة بمعان مثالية لاتتاح لغيره . وفى سبيل هذه الغاية يعنت الانسان نفسه لكى يستكشف أساليب لايلبث أن يطبقها حتى يعمد الى تغييرها ، وفى سبيلها يحدس وراء نتائج واغراض سرعان مايرفضها ويقصيها ، ومن أجلها يخترع نظريات قصيرة العمر وشبكة البقاء ، وفى الواقع ، يبنى ويهدم ، يشيد ويقوض ، ليستعين بالبناء والهدم ؛ وبالتشييد والتقويض ، على ابراز مختلف نظم الاجتماع ، وصور الفن ، ومنتجات العلم . وتلك النظم والصور والمنتجات يخلفها الانسان ، لا كشىء الا كآثار تدل على مابذل من جهد وما أنفق من نشاط . والانقاض التى يخلفها وراءه لايلبث أن تترك وتهمل كأشياء لاقيمة لها ، الاقيمة محدودة بالزمان ، مقرونة بصفة الانتقال والتغير . بيد ان هذه الانقاض ليست الاجسراً يصل بين الماضى والمستقبل ، وهى بذاتها المادة التى يتكون منها هيكل الحياة العقلية ، التى نصرف فى سبيلها عناية البحث والاستقصاء . وبقدر مايكون لنا من حظ فى بنأ ذلك الجسر ، أى فى تقويض القائم والاشادة على انقاضه ، وبقدر مايكون لنا من

علم بالوسائل التى عمد اليها الفكر لبلوغ هذه الغاية ، وبقدر مارأينا وعلمنا من أوجه نشوء العظائم من البدايات والصغائر ، يكون مقدار علمنا بشىء من الحياة العقلية ، التى تظل مختفية ، وتمضى مستورة وراء هذه الظواهر المشاهدة . لهذا اعتقد ان دراسة ماوقع تحت حسناومشاهداتنا ،هى الطريق الوحيدة التى تمهد لنا ان نبلغ بنظرة عميقة فيما ابدع العقل من منتجات ، أى فى حياة البشر الروحية . وسوف نرى عما قريب كيف ان كل عصر سواء أمن عصور العلم، أم من عصور الفلسفة ، لايبدأ الا بفروض وخيالات. ولايمضى فى البقاء الا جرياً على أساليب معينة ، وكيف ان بعض الاساليب الفكرية الخاصة قد تصبح عامة مأخوذاً بها . وكيف ان وجهات من النظر الفردى قد يتقبلها الفكر فتنتشر وتذيع ؟ غير اننا نلفى عادة أن تلك الفروض النظرية لايمضى عليها جيل أوجيلان على الاكثر ، حتى تأخذ العقول فى وزنها وتقييمها والفحص عن نصيبها فى الصحة ومطابقة الواقع . ونجد أن نصيب الاساليب الفكرية من النقد لايقل عن نصيب النظريات منه . فيطرأ على عالم الفكر عقيب ذلك أساليب حديثة تملك زمامه وتكتسح أمامها طرق التفكير العتيقة ، التى خيل للعقول زماناً أنها أكثر الاشياء ملاءمة للطبيعة ،وأبعدها انطباقا على مطاليب الحياة ، هنالك تجد أن نظام الجمعية الانسانية .وهيكل العلم وصور المعرفة ، وطرق تطبيق الفنون على الضرورات البشرية ؛ قد انتابها التغير خضوعا لمبادىء مستحدثة ، تكفل حاجات النوع بمقتضى الارتقاء والنشوء. ولا ريبة فى أنه لايقوى على البقاء من المبدعات القديمة الا النزر اليسير . فنجد أنه لايبقى من تلك الاشياء التى ندعوها قوانين العلم ، الا قانون واحد أو اثنين ، ولا يعود الى آلة الطباعة الا بضعة كتب ليعاد نشرها ،ولا يبقى الا عدد ضئيل من نواتج الفن ، مع قصيدة

أو اثنتين من قصائد الشعر . مثل هذا سوف يخلف القرن التاسع عشر ، كميراثنا الحى الذى جنيناه من سنيه الاولى . فى حين أن بقية المنتجات سوف تضم الى مجموعة مايدونه التاريخ من وقائع العصر . ولن يصبح لها فى الحياة من خطر أكثر من خطر الذكرى ، اذ تمسك عن أن ترسم لنا طريقا قيما أو تنير لنا سبيل الحياة فى عهدها الجديد . ولن تمضى بضعة قرون على تلك المنتجات ، الا لينظر اليها اعقابنا كما ننظر نحن الى آثار المدنيات الشرقية القديمة. كما ننظر الى ابى الهول القابع فى الصحراء التى تكتنف أهرامات مصر ، متأملين فى تلك الوسائل التى تم بها تشييدها ، وفى مقدار ماأنفق فى سبيلها من جهود ومشقات ، وفى الفكرة التى قامت فى رؤوس الذين وضعوا تصميمها وأقاموها حيث هى عنوانا على العصور ، ومثالا للدهور .

٣

الحاجة الى اختيار طريق ما - لايوجد في القرن التاسع عشر من حادث يأتلف من حوله الفكر العام - هل تاريخ الفكر هو تاريخ الفلسفة - الفلسفة تنظر الى الماضى - مسألتان - التأمل - تعريف الفلسفة وتحديدها - اقسام الكتاب : الفكر الاوربى فى القرن التاسع عشر - ليس فى العلم ولا فى الفلسفة ما يشمل معنى الفكر - الفكر محبوء فى الادب والفن - تأثير جوته ووارد سووت - الفكر المضطرب انحصاره فى شىء واحد : التفكير الدينى - العلم تام - الفوائد الذاتية - الفلسفة حلقة وصل بين العلم التام والدين - للفكر مظاهر ثلاثة - المظهر العلمى : والمظهر الفلسفى : والمظهر الفردى - صعوبة التفريق بين المظاهر الثلاثة - الفكر الفرنسوى ارتكز على العلم - حالة الفلسفة فى انجلترا - فوست - رواية جوته - عنوان الفكر فى القرن التاسع عشر - عصر اضطراب تسبقه الثورة - الفكر فى القرن التاسع عشر ابتكارى طبيعى من جهة ، ورجعى من جهة اخرى - مدرسة بيرونه - النظريات الثورية الفكر باعتباره قوة تشييدية بنائية - داروين - سبنسر - الفلسفة الخيالية - التقدم بالبحث فى الفكرة العلمية - مذهب هيجل

***

ان أكبر مزايا الفن أنه يقيم فى ذهن الانسان ، بنظرة واحدة صورة كاملة عن الغرض الذى يرمى اليه ، وبذلك يحدث تأثيرا تاماً فى العقل ، دفعة واحدة . على ان التأمل العميق ان كشف لنا عن الكيفية التى يتألف بها الكل بالتمام مجموع أجزائه ، وعرفنا كيف يعبر كل عنصر من العناصر المؤلفة للمجموع عن الفكرة الاصلية التى توحد بين الاجزاء ، فان الأثر الذى يتركه المجموع يظل السبيل الاوحد الذى نستطيع ان نفهم به كل جزء من الاجزاء قائما بمفرده . ولقد نكر على الادب ، وعلى العلم ، وعلى التاريخ ، ان فى مستطاع كل منها أن يصور الغرض الذى يرمى اليه فى مجموعه ، بحيث يحدث فى ذهن الباحث منذ البدء تصورا تاماً ؛ أو يزوده بفكرة

كاملة الاجزاء . على أننا نمت الى الباحث أن يماشينا متتبعا خطواتنا الى القمه العليا التى لابد من أن نبلغ اليها بتصعيدنا فى ذلك المرتقى الوعر . ان كثيرا من الطرق تسلم الى تلك القمة . على أننا غالب ما نخطىء فى اختيار السبيل المثلى والصراط المستقيم . وقد نبلغ بالقارىء حد الانهاك والكلال ، قبل أن نقطع نصف الطريق ، وربما نحدث فى نفسه احساسات قد تصده عن التامل فى مجموع مايترامى تحت قدميه من المناظر وهو فى مرتقاة . أما ماندرك نحن فى معنى « المجموع » فليس الا جملة ماتكونه أجزاؤه . فى حين أن الفنان لايدرك المجموع الا بفكرة ان الاجزاء ليست الا كسوراً يتكون منها كل مؤتلف النواحى .

طالما أعترض سبيلى كثير من أمثال هذه الصعاب وأنا مكب على التدبر فى أمر الفكر خلال القرن التاسع عشر ، على الرغم مما حوطت به نفسى من الحدود ؛ وما ألزمت نفسى من العكوف على دائرة من البحث لا أعدوها

لقد اعتقدت اعتقاداً تاما ، بعد مابلوت من البحث والتجاريب ، أن عالم الفكر اشبه بدائرة يحدها محيط يترامى فى اتساعه ترامى اللانهاية . ولشد ماعانيت من تعب ومشاق حتى وقعت على نقطة ابدأ منها السير واختط منها طريقاً يقودنى الى تلك القمة ، على أمل أن اشرف منها على منظر للمجموع يمكننى من اكتناهه ، والوقوف على ماهيته .

* * *

خصت بعض عصور التاريخ بقيام حركات فاصلة ، وحوادث عظيمة امتصت كل القوى العاملة النشيطة ، واندمجت فيها كل العناصر العقلية والتخيلية ، فتجد أن تلك الحركات قد مضت مستبدة بأمرها ، اما التخضع كل القوى المنبعثة فى عصر ما للعمل فى سبيل ابراز غرض معين ، أو

تثبيت فكرة بذاتها ، واما ان تلفيها وقد جرفت امامها كل شيء الى جو من التنازع والجلاد، يوجه بكل مافيه من مختلف الصور والقوى الى تزكية الحادث الرئيسى الذى تلتف من حوله قوة الفكر ، العناصر .

والامثال التى يرويها التاريخ كثيرة ، منها تلك القرون الطويلة التى يقص أخبارها تاريخ اليهودية ، والعصور الاولى التى اينعت فيها الكنيسة النصرانية ، والزمان الذى تقشعت فيه عن المدنية سلطة البابوات ، وزمان الاصلاح البروتستانتى ، وعهد الثورة الفرنسوية .

فاذا عدنا الى دراسة « الفكر » فى مثل هذه العصور ، لما أعوزنا البحث عن مرتكز نرتكز عليه أو نقطة نبدأ منها ، لان من الهين ان نعثر على سيارها الذريرى * ـ Vortex_Atom ـ الذى يحرك بحركته كل القوى الكائنة ، ويبعث العبقرية فى مكمنها ، ويوقظ الكفآت والمواهب العقلية من رقدتها ، ففى عصر كعصر الاصلاح البروتستانتى مثلا ، يمكننا أن نتكلم فى السياسيات الخاصة به ، وصور الدين التى انبتها ، والفلسفة والادب ولفن ، وكل المنتجات العقليه التى انتجتها . وأن نمضى فى بحثنا موقنين باننا لا بد من أن نقع على كل وجه من وجوه التقدم العام وعلي كل الخطى الارتقائية التى خطاها العصر ، وان نقف على كل الفكرات التى ذاعت فيه ، سواء أأرضت معتقدنا أم ناقضته . وانه لمن الظاهر الجلى أن العصر الذى أؤرخ فيه لا يتضمن حادثا من تلك الحوادث التى تمتص القوى وتبسط سلطانها المطلق على عالم الفكر .

---

* السيار الذريرى فى الطبيعيات هو الجوهر الفرد السابح فى الاثير ويقصد بذلك المؤلف ان الحوادث العظمى فى عالم الفكر أشبه الاشياء بالسيار الذريرى الذى يهز بحركته كل القوى المتصلة به « معرب »

على أنه ان كان فى القرن التاسع عشر من قوة وحدت بين المؤثرات التى انبثت فيه، فانها لم تظهر طافية على وجه الحياة ، بل ظلت دفينة فى أعماق الطبيعة البشرية. والمعضلة التى أخذنا على عاتقنا ان نبلغ الى حلها، والغرض الذى قضينا مجاهدين فى سبيل الوصول اليه ، لن يظهر سافرا غير مقنع . اذن نعتقد أنه غرض يمكن أن يدرك من طريق الاستنتاج وحده ، فلا نستطيع له تحديداً ولا حصراً . لهذا نوقن بأن الغرض الذى من أجله عشنا وشقينا وجاهدنا لم يظهر لمشاعرنا تاما بينا ، كما ظهر للذين عاشوا خلال عصر الاصلاح البروتستانتي ، أو عصر الثورة الفرنسوية . والا لما سقنا بانفسنا، لولا هذا الامر ، الى فلسفة « اللاشاعرية »و« المجهول » ولما انتهى القرن التاسع عشر مختتما بالتساؤل : « أمن قيمة لهذه الحياة » . ؟

وانت تعثر من جهة أخرى ، اذا ماقلبت صفحات التاريخ ، على عصور سادت فيها روح الهدوء ، فانصرف فيها الناس الى متابعة بعضهم بعضا فى السير فى سبيل بعينها ، واطمأنوا الى ميول عامة أحدثتها فكرات واحدة ، واخلدوا الى الاخذ بعادات خاصة فى التفكير، وانتحوا فى البحث أساليب فيها من الفطرة الأولى أثر السذاجة وتطريات البساطة والاعتدال، وعمدوا الى تطبيق بضعة سنن لم يعدوها الى غيرها، فظلوا عليها عاكفين ، ومضوا بها قانعين . كان هذا طابع الزمان الذى تقدم الثورة الفرنسوية ، أى الشطر الاعظم من القرن الثامن عشر . حتى لقد أصبح من الهين علينا أن نصف طابع ذلك القرن ، فصرفنا عليه اسم القرن الفلسفى، قرن التنوير العقلى ـ Aufklarung. ـ وان شئت فقل « قرن فولتير » . ذلك ، فى حين أننا لا نستطيع ان نصرف على عصرنا اسما مشابهاً لهذا الاسم ، ولا ان نخصه بنعت كهذا النعت . فانك لن تقع فيه على « اسم علم » يحمل معه شهادة

بالاثر الذى ترك صاحبه مطبوعاً فى جبين كل ما احتك به من حاجات الحياة العديدة التى وقعت تحت سلطانه.

لقد أدعى بعض الباحثين أن تاريخ الفكر هو بذاته تاريخ الفلسفة، على اعتبار ان مذاهب الفلسفة ونظرياتها المختلفة تتضمن فى مجملها الابانة عن السبيل التى تمشت فيها الفكرات خلال عصر ما من العصور. وعلى ذلك يكون الكلام فى تاريخ الفكر فى القرن التاسع عشر هو بذاته الكلام فى تاريخ الفلسفة خلاله.

لقد انتج القرن التاسع عشر كثيراً من صور الفلسفة ومذاهبها المختلفة. غير انك تجد ان تلك المذاهب، على الرغم من اختلافها وتباينها، من مثالية « فيخته » المتطرفة، الى مادية « بخنر » Buchner الالحادية، لن تجعلنا نشعر بأنها محيطة بعالم الفكر كل الاحاطة. ان أكبر دليل على هذا ان العصر الذى اجدب فيه العقل الانجليزى من الفلسفة، وهو أربعة العقود الاولى من القرن التاسع عشر، قد اخصب هنالك فى انتاج نزعة أدبية حديثة، وفى ابراز تصور خاص فى الفن، وفتح فى كلا الاتجاهين، اتجاه الادب واتجاه الفن، ينبوعاً فائضاً بمنتجات الحياة العقلية. فى حين انك لن تقع فى المذاهب الفلسفية على أثر تناولها بالوصف والتقدير. كذلك تجد ان فرنسا قد اجدبت فى « التأمل الفلسفى » خلال عصر « العودة الى الملكية » Restoration غير انها أحدثت اذ ذاك عصراً ذهبياً من عصور الادب، وأمدت كل أوروبا باضواء العلم التى اشعت من « باريس » خلال الثلث الاول من القرن التاسع عشر. وقلما عنى تاريخ الفلسفة بذكر « جوته » ومع هذا فان مؤلفاته تتضمن على الارجح أعمق صور الفكر التى انبتتها العصور الحديثة. ثم عد الى فرنسا ثانية. تجد، أن المذهب الفلسفى الوحيد الذى أبرزه العقل الفرنسوى طوال القرن التاسع

عشر، هو مذهب « كونت » فى «الفلسفة اليقينية » ، غير أنه لم يترك الا أثراً ضئيلا فيها . ومن ذا الذى يجرأ على القول بأن هذا المذهب يعكس على العالم من صور الفكر الفرنسوى ، ما يعكس عصر « فولتير » ، أو عصر « مونتسكيو » مثلا ؟ واليك « هيجل » نفسه ، فانه لذلك الباحث الذى عمد الى تتبع آثار العقل الانسانى فى مذاهب الفلسفة . على أنه قد جهر بعد الجهد والعناء بأن الفلسفة آخر ثمار المدنية ، وأن أية فكرة من الفكرات التى تمضى متحكمة فى العقول خلال أى عصر من العصور ، لا تظهر لابسة الثوب المذهبى ، الا وكان هذا عنواناً على زوالها ، ودليلا على انقضاء حياتها .

يدلك هذا على أن الفلسفة لا تنظر الا الى الماضى . انها تجمل ما فصلته الازمان ، ومن ثم تناقش وتنتقد . ولكنها لن تضع المستقبل صورة مرسومة . على أن ما فى هذه النظرية من حق ، قد يتناوله الشك وتحف به الريب . غير أننا لا نود أن نمضى فى الكلام فيها الآن ، لاننا سوف نعود اليها بعد . بل نكتفى هنا بأن نقول بأن مانعني من اصطلاح « الفكر » لا يمكن أن يتفق وما يعنى من اصطلاح الفلسفة . ولذا تقضى بأن تاريخ الفلسفة خلال القرن التاسع عشر ، أمر يختلف تمام الاختلاف عن تاريخ الفكر فيه . على أن هنالك موضعاً قد تحل فيه كلمة « الفلسفة » محل كلمة الفكر . غير أنه موضع يقرب فيه معنى « الفلسفة » من المعنى المدرك من « الفكر » ولا يقرب فيه معنى « الفكر » من المعنى المدرك من « الفلسفة » . وعلى هذه القاعدة كتب « هيويل » — Whewell. — « فلسفة العلوم الاستقرائية » Philosophy of the Inductive Sciences — وجعل الغاية مما كتب أن يبحث عن أساليب الفكر التى تتخذ ، عن قصد أو عن غير قصد ، سبيلا الى التفكير

أو البحث العلمى ، فتؤدى الى تقدم العلم وارتقائه .

على أننا قد نقع على محاولات شبيهة بهذه فى التجارة والسياسة والحكومات والدين والادب على وجه عام. على أن الفلسفة فى كل هذه الحالات لا تدل على معنى أكثر من أنها طريقة خاصة للتفكير والاستنتاج يستعان بها على حاجات الحياة، عملية كانت أم عقلية. وليس هذا هو المعنى الذى يدرك من الفلسفة فى الاستعمال المتفق عليه. أنها لتدل على شىء أعمق من ذلك. فلا هى أخذت على أنها أسلوب مرسوم ، ولا على أنها طريقة عقلية حرة تبرز بها الفكرات والتأملات. بل أخذت للدلالة على نظريات محددة، تفسر بها ظاهرات الكون بالغة من حقارة الشأن، أو عظم الخطر ما بلغت . ومن هنا لا نشك فى أن الفلسفة تكون شطرا عظيما من اشطر الفكر خلال القرن التاسع عشر ، وقد تكون أشد ما انتج الفكر اخذا بالروع ، وصرفاً للذهن فى سبيل التأمل والاستبصار . على أنها فى الحين ذاته اكثر ما انتج الفكر خضوعا لبواعث التغيير ، وأوسعها للمناقشة والنقد مجالا . ومع هذا فانا لا نشك فى أن الفكرات الخفية والاستنتاجات العميقة الغور البعيدة المتناول ، لهى الاساس الذى قام عليه هيكل النواتج العقلية والفنية ، والمستحدثات العلمية ، التى شيد نواحيها القرن التاسع عشر

وعلى هذا يظهر لكل باحث استعمق فى البحث فى نزعة الفكر الاوروبى خلال القرن التاسع عشر ، ان مباحثه لابد من أن تنقسم الى شطرين عظيمين كلاهما يتناول ناحية خاصة . ففى الشطر الاول يجب عليه أن يعتبر الفكر عبارة عن مجرد وسيلة تسلم الى غاية ما ، أو كأسلوب يتخذ ذريعة للوصول الى غرض معين ، سواء أكان نظريا أم عمليا. ولا يؤدى الفكر فى هذه الحال من معنى اكثر من أنه نوع من الاستنتاج

العقلى استخدم فى سبيل البحث عن المعرفة ، أو عن طريقة تطبق بها المعارف الانسانية . ولما كانت كل الاستنتاجات العقلية لا تبدأ الا بفروض أو أوجه من النظر ندعوها المقدمات ، أو المبادىء أو القضايا الضرورية ، ومن هذه الاوليات تولد أساليب معينة ، فان هذا الشطر من البحث ينقسم بدوره الى قسمين . يتناول القسم الاول تقرير المبادىء . ويختص القسم الثانى بالبحث فى الاساليب التى يمضى الاستنتاج العقلى ، نظريا كان أم عمليا ، خاضعا لمؤثراتها . غير أن الفكر ليس يقتصر أثره فى الوجود على زيادة معرفتنا بالاشياء الكائنة ، وتطبيق المعرفة على الاغراض العملية. فأنه ان اقتصر على هذا وحده لتفرق بددا ومضى ناقصاً غير تام ، بل غالب ما أوحى الينا بوجوه من التناقض تغشى عقولنا حيناً بعد حين . دليلك على هذا ان الذين يهبون أنفسهم للمباحث العميقة المستفيضة ، أو الى العمليات ، غالب ما يأنسون من انفسهم نزعة الى التغلغل فى أوجه من النظر فى حقيقة الاشياء تتسع أمامهم دائرتها كلما امعنوا فى البحث ، فى حين أن حاجتهم من البحث لم تكن لتبلغ بهم الى تلك الحدود القصية التى يسوقون بانفسهم فى غمراتها بلا حاجة اليها . فقد يظهر للباحث مثلا أن الاساليب التى يتخذها لبحثه سبيلا قد أصبحت معدومة الجدوى والنفع ان اراد الوصول بها الى غرض عملى يضعه نصب عينيه ، فيساق الى الشك فى تلك المبادىء التى مضى عليها عامة نصف عمره ، من غير أن تداخله الريب يوما واحدا فى صحة ما تقوم عليه من الحقائق ، وفيما ينتظر أن تنتج من الفوائد. وقد يصادف باحث آخر نجاحاً باحتذائه اسلوبا خاصاً فى البحث ، وبذلك تتجدد رغبته فى تطبيق ذلك الاسلوب على موضوعات كانت تعالج من قبله على طريقة مخالفة لطريقته ؛ وربما ينهض بذلك الاسلوب الى درجة

يصبح معها قاعدة عامة من قواعد الفكر . وقد يتفق لباحث ثالث أن يأخذ به الشغف بتتبع المعرفة فى فرعين او ثلاثة من فروعها تلوح على ظاهرها غير مرتبطة برباط ما . غير أن هذه الفروع اذ تتقارب فى ذهن الباحث لايلبث أن يأنس من نفسه ، لتقاربها فى ذهنه وضعا ، رغبة فى أن يوحد بينها ويؤلف بين ما تعارض من وجوهها . وقد يبلغ باحث رابع بعد زمان ما الى حد من الملل مما عكف عليه من مباحث لم تؤد به الا الى نواحى من العلم محدودة الفائدة ، فيسعى الى التخلص مما عكف عليه طوال عمره ليفوز بناحية أخرى من البحث العلمى أوسع مدى وأكثر فائدة وأبعث على الامل والرجاء . على أننا ان سلمنا بأن الجهل أو التفريط قد يعوق السواد الاعظم من الناس ، الذين لم ينفقوا قواهم حتى فى سبيل التنازع للبقاء ، عن أن يكونوا وجهاً من النظر يتعدى الدائرة الضيقة التى يلزمونها ، واذا سلمنا بأن الكثيرين منا انما يعيشون ، كالاطفال ، قانعين ، موقنين بأن حاجات النوع الانسانى العظمى تدبرها ارادة علوية لن تبلغ اليها عقولنا ، ولن تدركها أفهامنا ، فان فى بنى الانسان لعدداً عظيما من أولئك الذين لايهدأ لهم روع الا اذا تطلعوا الى شىء أكرم مما بين أيديهم طبيعة ، وأوسع مدى ، وأحسن صفة ، أولئك الذين يعيشون متعطشين للوصول الى مستكن الحكمة الصحيحة ، أو تسوقهم طبيعتهم الثائره المتوثبة الى البحث وراء القواعد والاغراض الغائية التى يشيد عليها هيكل الكون والحياة .

***

لقد أفلحت اللغة فى نحت كلمة تعبر عن هذه المحاولات على تعدد مظاهرها ، وعلى اختلاف أوجه تطبيقها . وضعت لها كلمة - « التأمل »

Speculation وهى كلمة تدل على ما تتطلب طبيعة هذه الاشياء من جرأة واقدام، وما تبعث عليه من التغرير بالنفس . وجدت تلك الاشياء فى كل العصور ، وفى كل الامم ، وفى كل اللغات ، وعلى الجملة حيثما كان الادب بارزاً فى صورة من العقل او التخيل ، مصبوبا فى قالب من النثر أو الشعر او الرموز ، معبراً عنه فى بعض الاحيان بمصطلحات محدودة ، وفى البعض الآخر بمجازات غامضة مبهمة . وقد نتصور أن الفلسفة لم تنشأ الا من طريق تلك الاوليات الغامضة ، حيث شرعت العقول تسلكها فى نسق يراعى فيه اسلوب ما ، أو توحدها فتجعل منها كلا متماسك الاطراف ، مؤتلف النواحى . وعلى هذا نستطيع أن نعرف الفلسفة بأنها « الانصراف الى التأمل على أسلوب مبين محدود ، للوصول الى وحدة نظامية » . وقد نقول بأن العلم والفلسفة هما « التفكير الاسلوبى » Methodical Thought. فى حين أن كلمة « نظامى » لاتنصرف الا الى صور التفكير الفلسفى العميق الذى يرمى الى بلوغ الوحدة والكمال .

***

لقد مضينا حتى الآن فى تدبر الفكر على قاعدة أنه وسيلة تؤدى الى غايه . أو بالاحرى نستطيع أن نقول أننا مضينا نبحث الفكر فى نزعته العلمية . والآن نريد أن نتدرج من ذلك الى بحث الفكر اذ يتخذ الفكر موضوعا لتأمله، أى كقوة تنعكس على نفسها ، وتنصرف الى معرفة ماهيتها واصلها ونشأتها ونواميسها وقوة ثباتها ، والفحص عن قواها ، مع الانصراف فى كل ذلك الى الوصول الى حد يتحقق عنده كمالها ووحدتها وبقاؤها . وكل ما فى هذا الشطر العظيم من اشطر الفكر سوف نطويه تحت عنوان « الفلسفة » . فكما أننا سنخص القسم الاول من كتابنا « تاريخ الفكر

الاوروبى فى القرن التاسع عشر » ببحث الفكرة العلمية ، كذلك سنخص القسم الثانى منه ببحث الفكرة الفلسفية .

***

لقد نشأ العلم تدرجا من مجمل ما استجمع من ضروب المعارف المدخولة بالخطأ الممسوسة بالفوضى ، وما زال الفكر يعالجها برغبته فى الوصول الى الكمال ونزعته الى ترتيب المعارف حسب الكفاءات العقلية ، واستخلاص أوجه النفع منها ، حتى وصل الى ما نعرف منه فى العصر الحاضر . كذلك شبت الفلسفة بطريقة مشابهة لهذه ، غير أنها شبت من ناحية الفكرة التأملية ، برغبة وضع تلك الفكرة على نظام يتبع فيه اسلوب ما ، ابتغاء الوصول الى غرض محدد أو غاية بعينها . ومع كل هذا فلن يسع العلم ولا الفلسفة ، ولا كلاهما ان اجتمعا وتمازجا ، معنى « الفكر » . ولن يشمل معنى العلم ولا معنى الفلسفة ما يقصد من اصطلاح «الفكر» . فان كلا من العلم والفلسفة ، ينطوى تحت ما يعنى من اصطلاح « الفكرة الاسلوبية » المنظومة على قواعد معينة . غير أنه لدينا ناحية الفكر المعدومة الروابط والنظم ، ناحية الفكر المطلقة من الحدود والتعاريف ، تلك التى تستتر وراء صور الادب والشعر والخيال والفن . ولن يظهر لتلك الناحية من أثر فى عصرنا ، الا فى الحياة الفنية أو الأدبية أو الدينية . وهذه الصور ان كانت من الواقع شعاعاً منعكساً على الحياة من اشعة العلم أو نور الفلسفة ، الا أنها ، ككل الاشعة المنعكسة ، لا تتبع مصدر الضوء التى ينبعث عنه وجودها فقط ، بل تتقدمه فى الظهور عادة . أنها ليست العتمة التى تعقب النهار ، بل هى فجر المعرفة الذى يتقدم بزوغ الشمس . انها الشفق الذى ترامت خيوطه المشعة فى ظلمة الفكر . انها الصدفة التى كمنت فيها جرثومة الفكر التى

تمخض عنها جنين المستقبل . فيها نشأت بدايات الفن، وأوليات الفلسفة والعلم. التى لم يقف العقل على أسرارها ولم يحلم بما سوف يكون من نتائجها . أنها لتحيط بابعد أغوار العقل ، حيث هنالك تجد مبعث الفكر واصله كامنا فى تضاعيف الفطرة ، وحيث ترجع بين حين وآخر الى تلك الاغوار السحيقة تستمد الحياة كلما أعوزتها الحياة ، وتستنزل الوحى ، كلما أعوزها الوحى ، فيزجيها بكل طارف وتليد .

لن يكمل بحث يعنى بتاريخ الفكر فى القرن التاسع عشر ، أو يبلغ حدا يرضى الحق ، من غير أن يصرف عناية الاستبصار الى ذلك العالم الكبير ، عالم الفكر المطلق من الاساليب الموضوعة والانظمة المفروضة ، ذلك العالم الذى تمثله الآداب والفنون التى تبرز فى عصر ما من العصور.

لقد خص الادب والفن فى القرن التاسع عشر بقسط من الحياة ، ونصيب من قوة الابتكار ، وسرعة التغاير والانقلاب التابعين لنزعة الفكر ، لم ترو عصور التاريخ ما يبزها شأناً وخطرا ، الا عصور ثلاث. عصر سعدت به آثينا فى عهد « بركليز » ، وعصر نعمت به ايطاليا ابان « النهضة العلمية » ، وعصر ازهرت فيه انجلترا تحت حكم « اليصابات » على ان القرن التاسع عشر قد خص بقسط من الابتكار الموسيقى لم تبلغ اليه العقول فى كل عصور التاريخ . ففى ذلك الفن وحده ، على ما يقول الثقاة وجهابذة اهل النظر ، يبز عصرنا بقية العصور ، قوة ابتكار ، ووفرة انتاج . كذلك تجد فى الشعر أن « جوته » و « واردسوورث » قد نهضا بالاذواق الى مستوى أرقى من مستواها الذى ورثته عن القرون الاولى ، وأبدع الفكر الفرنسوى والانجليزى نوعاً مبتكرا من القصص الخيالى . فى حين أن تصوير المناظر الطبيعية ، ذلك الفن الذى خلقه الانجليز ، لم يكن معروفا خلال القرون الاولى.

كل هـذه الاشياء ، على الرغم من نشوئها مطلقة غير مقيدة بقانون علمى ولا قاعدة فلسفية ، وفى الغالب خارجة عن سلطان المدارس والمعاهد فانها تشير ، بل تدل، على طرق جديدة من طرق التصور العقلى ، وتشف عن مجموعة من الفكرات لم يتم نشوؤها ، أو هى أتمت من النشوء الفكرى قسطا جزئياً . ان كل هذه النوائج لتنم عن مجهود عقلى عميق ، ان لم يمتصه العـلم ولم تسغه الفلسفه بعد ، الا أنه ينطوى ، جرياً على ماحددنا من ذلك التصور الجوهرى ، تحت عالم الفكر . ان المعنى المدرك منه قد يكون غامضاً ملغزاً . والتعبير الواضح الجلى الذى سوف ينتج ذلك المجهود فى الفلسفة والاستنتاج العقلى ، قد يكون بعيداً غير بين لنا فى زماننا هذا . غير أننا مع ذلك لانستطيع أن ننكر أنه كائن موجود . وما هو الا مجموع الفكر غير المحدود . هو تلك الاقباس المنيرة المتناثرة المبددة ، التى لم نستشف بعـد بورتها ولم نعرف بعد نقطة ارتكازها . هو تلك الاشياء التى لن نستطيع ان نمر بها ، ونحن نؤرخ فى تاريخ الفكر فى القرن التاسع ، من غير أن نلقى عليها بنظرة او نخصها بعناية البحث ، على غموضها .

ليس من الهـين ان نعـثر على اصطلاح نصرفه على مجموعـة الفكر غير الأسلوبى Unmethodical Thought. على تشعبها وتجزئها وتفاصم حلقاتها. لن تعثر لها على اصطلاح مكون من كلمة واحدة كاصطلاح العـلم أو الفلسفة ، يمكن ان يعبر عن كل مافيها من معنى ، وما تحوى من نزعة

الى هنا استطعنا أن نبين عما لايمكن أن يصبح من الفكر الاسلوبى يوماً من الايام . غير اننا مع هذا نشعر بأن ذلك الحيز من الفكر لهو الذى يتضمن اعظم شطر من مصالحنا ، واخص ما يحتك بحياتنا العامة ، وانبل

مانتطع اليه فى الآمال ، ومانشرئب اليه باعناقنا فى الامانى . ان العلم ليتمشى فى طريق تسلم به شيئا فشيئا ليصبح مسألة احصاء ونسبة ، فيكون مهنة لاتعنى بغير المعمل وحانوت البيع والمصنع والسوق. وكذلك الفلسفة فاننا نستشم فيها كثيراً من رائحة المدرسة وقاعة المحاضرة . وهى فضلا عن ذلك لتمعن فى سبيل التكون على صورة مذهب أوقضايا عامة ، وكثيراً ماتعنتنا بالتعاريف ، وبالنظر فى المجردات . غير انك تجد ان النسبة والاحصاء والمقاييس ، والتعاريف وتجريد الفكر الصرف ، لتعجز برمتها عن ان ترضى ، فى ساعة هدوء أوفترة نحس فيها بحاجة ماسة من حاجات الدنيا ، مطاليب الحياة التى نقع عليها فى الدين . وانى لاصرف هنا كلمة الدين كما هى فى أصلها وجوهرها وهى تدل عندى على ذلك الشطر من الفكر الذى يبرز فى مجموعة مؤلفات الادب الخارجة عن مباحث العلم والفلسفة.

هنالك كلمات يكثر أو يقل استعمالها فى الادب الحديث قد تساعدنا على وضع قاعدة نفرق بها بين ما نريد أن نفرق بين بعضه وبعض من نواتج العقل الانسانى ، بحيث تؤهل بنا الى تكوين نظرة أولية تنير لنا السبيل الذى يجب أن نسلكه فى بحثنا هذا .

يقال ان العلم ذا صفات ثلاث : يقال انه تام ، ايجابى ، موضوعى. وأن الفرق بينه وبين صور الفكر الاخرى ان هذه غير تامة ، مبهمة ، ذاتية : Subjective. . ان العلم ليؤدى للعقل نواتجه أو فكراته فى اصطلاحات محدودة بالتعريف ، مباشرة المعنى ، بينما تجد ان هنالك عالما من الادب والنواتج العقلية غير محدود بالتعاريف ، رمزى فى قوامه ، غير مباشر المعنى والتعبير . ان العلم يسلم بأن ليس له من دعامة الا دعامة المعرفة على أن

تكون بينة جلية تامة الوضع . لهذا تجده معانداً فى طبيعته لنواحى الفكر المرتكزة على الاراء والاعتقاد والايمان. ولا يغيب عنا أن هذه المصطلحات اما أن تشير الى الاسلوب الذى ينتحى فى البحث ، واما أن تشير الى موضوع البحث ذاته . أما العلم فيعترف بأن له أسلوباً ثابتاً لا يحتمل الجدل ولا يسع التورط فى المسائل الخلافية النظرية . وأما بقية فروع الفكر ، فاما أن تستعير أساليبها من الاسلوب العلمى ؛ واما أن تطبق أساليب متغايرة لم يجمع عليها الاجماع كله ، أو تأبى الخضوع لاسلوب ما على وجه عام .

اذا بلغنا هذا المبلغ امكننا أن نقول بأن وضع حد للتفريق بين موضوعات بحثنا أصبح مستطاعاً . فالعلم يتناول كل الاشياء أو الموضوعات التى تطرأ على أذهان السواد الاعظم من الناس أو تمس مصالحهم ، وهى موضوعات قد يبلغ الى الاحاطة بها كثير من الناس . ولهذا يفخر العلم بأن مشاهداته واستنتاجاته خاضعة دائما للتحقيق والبحث آنا بعد آن . لذلك تجد أن شطراً عظيما من المشاهدات والاستنتاجات العلمية قد تؤخذ فى أكثر الاحيان على أنها حقائق تامة اجمع على صحتها وثباتها ، فيمضى الذين لا يأنسون من أنفسهم القدرة على تمحيصها وبحثها ، أو الذين تقعد بهم الهمة دون فحص براهينها ، قانعين بأنها اشياء بدهية ثابتة لا مبدل لها . غير ان هنالك أشياء كثيرة تقوم فى عقل كل فرد من الافراد ، شخصية فى طبيعتها ، ذاتية فى مبعثها . ولهذه الاشياء فى انفسنا من الشأن والخطر ما لغيرها من مطالب الحياة وحاجاتها . ان هذه الاشياء لتكون المادة الحقيقية التى يتركب منها الفكر الخارج عن ميدان العلم ، وهى فى جوهرها ومظهرها مناظرة للعلم اليقينى . وفى هذا الشطر من الفكر لا يستطيع شخص بذاته ان يقوم بعمل ينتفع به الكثيرون ، على نفس

الطريقة التى تحتذى فى العلم. فالاخذ بالبرهان فى ذلك الشطر مستحيل ، والاجماع على شىء فيه لايضم تحت لوائه الا عدداً قليلا من الناس . فالاقوال والنظريات لايمكن أن تؤخذ فى هذا الشطر على أنها حقائق ضرورية لاتحتمل الجدل كما هى الحال فى العلم ، بل ان كل شخص لابد فى أن يجتاز فيها السبيل الذى اجتازه الذين تقدموه ، قبل ان يأنس من نفسه القدرة ، او يجد لنفسه حقاً فى قبول ما ألقى اليه أو الانتفاع بثمراته .

ان الصفة الوحيدة التى تلازم ذلك الشطر من الفكر أنه فردى ذاتى ، فى حين أن العلم ، مهما كانت صبغته ، ومهما كان أصله ، علم موضوعى. أى غير ذاتى . يرجع الى الموضوع ، لا الى الذات التى تفكر فى الموضوع وتفحص عنه. فاذا تمثلت الفكر بشىء ذى طرفين متناظرين ألفيت أن العلم الرياضى فى أحد طرفى الفكر ، وأن الدين فى الطرف الآخر . وأنك لتجد أن الاتفاق فى الطرف الاول صفة ملازمة ، كالاختلاف فى الطرف الثانى. تلحظ ان وحدة الفكر صفة ثابتة فى الطرف الاول. فى حين أنك ان تقع لها على ظل فى الطرف الثانى. انها لم تعرف فى الدين ولن تعرف . وأنك اذا أردت ان تعبر عن ذلك بالكلام الدارج لاستطعت ان تقول ان المعرفة والتحقيق لزام الطرف الاول وأن الايمان والاعتقاد لزام الطرف الثانى. على أنك فيما بين الطرفين تقع على مسافة كبيرة من الخلف تفصل بينهما . ان هذه المسافة ليغشاها من الفكر صور تصل بين الطرفين ، تبرز حينا فى هيكل من المعرفة ، وآخر فى مثال من الايمان ، فيختلط فيها قليل من الاشياء المحققة ، بكثير من الايمان والاعتقاد المبهم . تلك المسافة الكبيرة ، وهذه المفازة المترامية الاطراف ، والتى تتوارد عليها صور التغاير والاختلاف سريعة متعاقبة ، هى سكن الفلسفة الحقيقى ، ومنبتها الاصلى . الفلسفة التى

تتناول الحقائق ، ولا تأنف من الايمان . الفلسفة أصل المعرفة ، ومنبع الاعتقاد واليقين . الفلسفة حلقة الوصل الواقعة بين الطرفين ؛ طرف العلم اليقيني ، وطرف الدين .

ولو كانت كل فكراتنا قائمة على الرياضة الصرفة ، راجعة الى العدد والقياس والتقدير الحسابي ؛ أو كانت دينية صرفة ، لا تنظر الا في مصالحنا الذاتية ومعتقداتنا الخاصة ، لما كان لنا من حاجة الى وسيط يقوم بعبء التفاهم بين الطرفين ويصل بين المتناظرين ، ولما قام في عقولنا خلاف بين الاشياء المحققة ، وبين المعتقد الذاتي . غير أننا لا نلبث أن نعكف على القواعد الرياضية ، أو نعمل على ابراز معتقداتنا الى حيز العمل ، حتى تدركنا صورتا الفكر الاخرتين وتلزم الاحتكاك بمصالحنا ، فنشعر اذ ذاك بضرورة الكشف عن نظرية أو مذهب يمنع التصادم بين الاطراف المتباينة ، ويسير كل الاطراف في طريق يمتنع فيه احتكاك بعضها ببعض . على أن الظروف التي تنتج مثل هذا الاحتكاك اذ تختلف باختلاف حاجات الحياة العملية ومطاليبها ، وتتباين بتقدم العلم العملي ، كان تغير تلك النظريات والمذاهب ومضيها ممعنة في التطور والتباين أمرا محتوما بحكم ذلك .

قد يقال هنا ، جريا على ماتقدم ، ان مهمة الفلسفة تنحصر في تدبر تلك الطرق المختلفة التي تطبق بها الاساليب العلمية الصرفة وينتفع بها ، أو ملاحظة تلك السبل المتباينة التي تصبح من طريقها المعتقدات الذاتيه ذات أثر في المسائل العملية . وهي مسائل تشترك فيها الصبغة الذاتية الخاصة ، بالصبغة الموضوعية العامة . ولن يستتبع ذلك ان الفلسفة يجب أن تشيد مذاهب تامة . غير انه من الطبيعي ، بل من الضروري ، ان يحدث استجماع عدد كبير من النظريات ومظاهر الفكر العامة ، نزعة في النفس الى التأليف بين

ما تخالف منها، والتوحيد بين ما تبدد من مجموعها، لتصبح كلا متماسك الاطراف. بذلك تجد ان التصميم الذى لم يكن فى مبدئه سوى شيء انتقادى تمهيدى صرف ، والذى لم يكن الا مجرد وسيلة يتذرع بها الى غاية، قد ساق المفكر فيه الى تكوين نظرة عامة شاملة فى حقيقة الاشياء ، أى الى مذهب فلسفى.

وانت فى أية من الجهات نظرت فى الموضوع ، فلابد من أن تقودك خطواتك الى اعتبارات ثلاثة يتشكل فيها الفكر: الاعتبار العلمى: والاعتبار الذاتى :والاعتبار الفلسفى . فاذا أهمل باحث من الباحثين النظر فى اعتبار من هذه الاعتبارات فى تاريخ بضعه فى تطور الفكر فى القرن التاسع عشر، فانه لا محالة فاقد قسطا من قيمة عمله على قدر ما يكون اهماله .

ولا ريبة فى أن هنالك مدارس تصدت لبحث الفكر دمجت العلم فى الفلسفة . وأخرى ظلت معتقدة أن لا استقلال بين الفكر فى صورته الدينية ،وصورته الذاتية، وصورته الفردية ، وأن هذه الصور ليست سوى صفات منتحلة لا صفات حقيقية . وهذه النظريات وامثالها ان حازت قسطا من الاثر فى العقول كبير ، الا أنها لم يكن لها من نصيب فى النهاية الا السقوط والفناء . وهانحن نجد انفسنا فى نهاية عصر من أطول عصور النقد واخصبها انتاجاً ، فلا نستطيع أن نحكم بان عالما من عوالم الفكر الثلاثة قد فاز بنصر فاصل على العالمين الآخرين. فلا يزال كل من العلم والفلسفة والدين شرع فى حكم العقل من حيث الأثر الخاص بكل منها . فالعلم لا يزال كما كان تلك الصورة الفكرية التى تزودنا باوجه المعرفة المحققة . والدين لا يزال منبع المعتقدات التى تنزل الى أبعد أغوار المصالح الذاتية . ولا نزال نجد أن انفسنا اشد مما كانت شعورا بالحاجة الى التوفيق بين ذينك الطرفين بوضع نظريات تحتذى فى الحياة ، وتبعد عن العلم بمقدار

بعدها عن الاقتناع الذاتى الصرف . وهذا يدلك على أن الحاجة الى الفلسفة اشد مما كانت فى كل العصور الاخرى . لقد شهد القرن التاسع تطورا عظيما وقع فى الفكرة العلمية ، ونهضة خصت بها الصوالح الدينية ، وحياة جديدة بعثها الشعور والنشاط الدينى ، وهو على الظن الغالب اغنى من كل العصور التى تقدمته بالنظريات الفلسفية وبمذاهب الفلسفة.

لشد ما كان اسفى اذ الفيت نفسى مضطراً لان اقسم الموضوع الذى عكفت على الكتابة فيه وأن افصل بين اجزائه . لان الفكر فى مظاهره الثلاثة ليس الا وحدة ، الاضطرار الى تفضيل بعض مظاهرها على بعض، واختيار نقطة نبدأ منها السير ، أمر اشعر معه بكثير من الأسف . رأيتنى مضطرا بحكم الضرورة ، لدى اول عهدى بالتأمل فى أمر الفكر خلال القرن التاسع عشر ، أن أجزىء ماهو فى الواقع متحد الاجزاء مؤتلف النواحى. ولحظت فوق ذلك أنى ملزم ، كلما امعنت فى بحث مظاهر الفكر، بأن انتخب من بينها ما هو اكبر خطرا وأثمن قيمة لاجعل منه نقطة الابتداء. على أن الحقيقة أن فكرة التفضيل بين بعض مظاهر الفكر وبعض ، لم تقع قط فى سبيل عملى كقاعدة ثابتة. فانى اسلم، وقتا بان كل مظاهر الفكر تتساوى من حيث الأثر والقيمة، ولا ابتئس ان انا بدأت بالنظر فى مظهر من مظاهره بغير تفضيل ولا اختيار، تاركا الرجوع الى المظهرين الآخرين رهن الظروف التى تحيط ببحثى . ذلك لان مظاهر الفكر ان نظرت اليها من ناحية التاريخ والواقع ، الفيتها نسيجا واحدا متلازمة اجزاؤه كل التلازم ، بحيث يتعذر عليك أن تفصل بين خيوطه الا لتذهب بالصورة الطبيعية للمنسوج فى مجموعه . ذلك فى حين أنه ليس من المعتذر أن تضع نفسك فى مواضع متباينة اذ أنت مكب على التأمل من مظاهر الفكر

الثلاثة فى القرن التاسع عشر ، لتتخذ فى موضع منها مظهراً تضعه فى قمة البحث ، والآخرين فى القاعدة . فانك لن تستطيع أن تنكر مثلا أن المظهر الذى التأم من حوله الفكر الالمانى خلال الثلث الاول من القرن التاسع عشر ، كان المظهر الفلسفى . فان ذلك العديد الوافر من المذاهب الفلسفية التى تعاقب ذيوعها فى ألمانيا ، لامر باعث على أشد العجب . كذلك كان أثير تلك المذاهب على الادب والعلم والحياة العملية مقطوع النظير فى تاريخ الانسان . والرغبة فى استيعاب المعرفة التى اهابت بطلاب العلم فى نواحى الدنيا الاربع ليتوافدوا الى المانيا فتكتظ بهم قاعات الدرس ليتلقوا عن كبار الفلاسفة الغيبيين ، لن تقع على مايماثلها اللهم الا فى مدارس آثينا فى العصور القديمة ، أو فى قاعة الفيلسوف « أبيلار » Abelard فى القرون الوسطى . فاذا بدأنا البحث بالنظر فى هذه النهضة الكبيرة ، وكيف نشأت ونمت ، وكيف ضعفت وبادت ، كان لنا من ذلك تقدمة حسنة نتطرق منها الى الكلام فى تاريخ الفكر فى القرن التاسع عشر . واذا مضينا بعد ذلك ناظرين فى حالة فرنسا الفكرية وأردنا أن نستخلص منها أشد مظاهر الفكر فيها أخذاً بألبابنا خلال القرن التاسع عشر ، وقعنا على مجموعة أسماء اولئك العلماء الاعلام الذين ينزلون فى الصف الاول من بين العقول التى اقلتها الارض فى كل عصورها . ففى الشطر الاول من القرن التاسع عشر القيت بزور كل فروع العلوم الحديثة فى فرنسا على وجه الاجمال . وخضع كثير منها للقوانين والاساليب الرياضية البحتة . وفى فرنسا عممت موضوعات العلم تعميما ألبسها ثوباً طلياً من الاسلوب اللغوى ، فبدأت تتغاغل فى الادراك العام ، وأنشأت فى الادب والفن مدرسة حديثة هى مدرسة الطبعيين .

واذا قارنت بين الروح الرياضية الطبيعية التى نمت فى فرنسا خلال القرن التاسع عشر وبين الفلسفة ، وجدت أن هذه لم تسعد بحظ من النشوء كبير. فان النزعة التشيدية التي انتجتها الفلسفة الخيالية فى فرنسا اذ ذاك لم تستمد الا من المذاهب القديمة كمذهب « ديكارت » Descartes و « افلاطون » Plato و « ارسطوطاليس » Aristotle ، أو من المذاهب الاجنبية عن فرنسا كمذهب « هيجل » وغيره من فلاسفة ألمانيا الغيبيين . فاذا رجعنا الى انجلترا وقارنا بينها وبين فرنسا من ناحية العلم ، والمانيا من ناحية الفلسفة ، وجدنا أنها قد أصيبت بالعقم العلمى فى أوائل التاسع عشر . فان العلم والفلسفة لم تينع ثمارهما فى انجلترا الا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وبزت فى الناحيتين كل شعوب أوروبا . ولكننا نجدها فى أوائل القرن التاسع عشر قد أجدبت كل الاجداب فى تكوين مدارس كبرى سواء أفى العلم أم الفلسفة ، فنجد ان مستكشفات العلم العظمى لم تقرن بسوى اسماء مفردة ظلت فى عزلة عما حولها غالباً . وتلك النظم المدرسية الكبيرة التى يحق للعلم ان يفخر بها فى فرنسا ، لم يكن لها وجود فى انجلترا . كذلك لم يكن لانجلترا أقل ضلع فى نشر المعرفة العامة فى أوروبا ابان القرن التاسع عشر ، والفلسفة الغيبية لم تنهض هنالك مطلقاً بعد تلك الضربة التى سددها اليها « دافيد هيوم » ، واقتصر التأمل الفلسفى على علمى الاجتماع والاقتصاد المبتكرين فى ذلك العهد . غير انك تلقاء ذلك تقع فى انجلترا على فكرات أخذت تتكون وتنمو فى الأدب الشعرى . فان ما كان من قوة الابتكار الذاتى موشاة بلغة « شيلى » ـ Shelley ـ « ووارد سوورث » الشعرية ، وما أبرز نبوغ « تنيسون » Tennyson . « وبروننج » ـ Browning ـ من المعانى الناضجة العميقة ، هى الاشياء التى تقع فى طريقنا كأخص ما فاض به الفكر الانجليزى خلال القرن

التاسع عشر ، سواء احصرنا وجهه المقارنة بين انجلترا وبين بقية شعوب القارة ، أم بينها فى عصرنا ، مقاسة بالعصور التى أينع فيها الفكر الانجليزى من قبل ذلك .

ولقد نرجع فى النهاية الى ما انتج أكبر عقل جاد به الشطر الاول من القرن التاسع عشر لنستمد منه نقطة ابتداء نرتكز عليها. قد نرجع الى كتاب « فوست » Faust الذى أخرجه نابغة النوابغ « جوته » قد نرجع اليه لنتخذه مثالا لاعمق ماجاد به القرن التاسع عشر من صور الفكر ، بما فيها من الشكوك والآمال ، اذ ينتقل بك كاتبه من تيه الفلسفة الموحش ، الى ميدان العلم الطبعى الفائض بالنور ، المحفوف بالايناس والطمأنينة ، أو يأخذ بيدك الى أقصى اغوار الحياة الفردية المستورة وراء ظواهر هذا العالم ، ليقذف بك الى مطمأن المعتقد الدينى والايمان ومافيه من الاسرار الخفية المحيطة بطبيعة الخطيئات ، والرجوع عنها الى التوبة والاستغفار .

على اننا من أية من تلك النقط نبدأ سفرنا الطويل ، وعلى أية من بورات الارتكاز ، تقع أبصارنا لدى أول نظرة نلقيها على مابين يدينا من ذلك الميدان الفسيح الذى نريد ان نستكشف نواحيه ، نجد أن هنالك مظهراً واحداً يتحيز فى عقولنا منذ البدء . سرعان مايلقى فى روعك ان ذلك الميدان الفسيح ليس بالجنة التى تطمع فيها بالسكينة والهدوء ، وليس هو بالمكان الذى تؤمل أن تزود فيه بمهيئات العمل الهادئ الذى تبزر بزره وتجمع حصادة بدعة ولين ، وليس هو منبت للتعاون واقتسام العمل الذى تظفر فيه بالسلام البعيد عن خشونة الصراع والجلاد . انه لميدان اشبه مايكون بارض تناوبتها القوات العنصرية بالتخريب ، وانتابتها الزلازل العتية بعواصف التدمير ، فتركتها شوهاء ، لا تفرق بين صعيدها والاخدود . وانك لتعثر فيه فوق

ذلك على بضعة اناس اخذوا على عواتقهم أن يسدوا منه فجوات احدثها الماضى ونقائص خلفها السلف ، وآخرين آخذين فى تشييد أسس جديدة على قواعد جديدة . وتقع على غير اؤلاء وهؤلاء فتجدهم متنابذين متصارعين على حيازة الملك أو اقتسام التراث ، حتى أولئك العمال الوادعون فى مصانعهم لن تتركهم طبيعة المجتمع الحاف بهم آمنين ، بل تدعوهم الظروف الى الاشتراك فى تلك المعارك ، أو تهزهم شكاوى الذين يجاورونهم من مظالم أهل السطوة والجاه ، فيهبون من مراقدهم عطشى صراع ، ويرتدون كلمى هزيمة وانكسار .

أما اذا أردنا أن نتدبر السبب فى ذلك القلق السائد فى المجتمع ، والذى ظل بين الاثر فى الحياة طوال القرن التاسع عشر ، فالواجب يدعونا الى أن نرجع النظر كرة الى العصر الذى تقدمه ، لنجد أن عاصف تلك الثورة الهوجاء الذى عصف على أوروبا فدك كل النظامات السياسية والاجتماعية ، هو الذى ترك ذلك الاثر الظاهر فى آرائنا وافكارنا ، من أية ناحية نظرت فيها ، وعلى أى الوجوه قبلتها . ان ذلك العصر الذى نشير اليه قد دعى بحق عصر الثورة . أما اذا لم اعتبر أن الفكرة فى القرن التاسع عشر مع كل هذا فكرة ثورة وانقلاب ، فذلك لأن التقويض والهدم تابعان لعصر فرط وانقضى ، وأن فجر القرن التاسع عشر قد توج بالرغبة فى النبأ ، اما بتشييد الاسس الحديثة ، واما بالرجوع الى صور الفكر القديمة ، ومظاهر الحياة التى خلفتها القرون الاولى ، اتزكى ببراهين ودلائل مستحدثه ، أو لتبرز فى ثوب يسدل على معنى جديد أو منفعة محققة .

كان الفكر فى القرن التاسع عشر من الناحية العلمية اساسى طبعى من جهة ، ورجعى من جهة أخرى . ولست أقصد بانه اساسى طبعى ، الا لما كان

فيه من نزعة البناء والتشييد التى تغلغلت الى صميم الاشياء لتتخذ مما تعثر عليه من المواد وسيلة لاقامة هيكل العلم على أرض بكر . كما انى لا أقصد بأنه كان رجعيا الا لما انست فيه من شتى المحاولات المبيئسة التى اعتمدت على النظم التاريخية والعقائد ، ومضت فى تلك السبيل عاملة للعثور على مافيها من حقيقة ، ومالها من قيمة فى الحياة الانسانية ، وما يتضمنان من خطر وشأن فى علاقتها بالقرن التاسع عشر .

ان عوامل الهدم والتقويض لا تزال قائمة بفؤوسها ومعاولها . فاننا لا نزال نرى الروح الثورية قائمة فتية فى عصر التأسيس والبناء . فأن الحياة الجديدة المملوءة بكل بواعث القوة التى بثها « برنز » Burns. و « واردسوورث » و « كوليردج » فى الشعر الانجليزى ابان القرن التاسع عشر ، قد عاقتها الروح الثورية التى خصت بها مدرسة « بيرون » The School of Byron عن الانبعاث فى سبيل النشوء ، بل سممتها . كذلك تجد أن الفكرة الحديثة التى شبت وترعرعت فى فلسفة « كانت » والمدرسة المثالية Idealistic قد انحطت خلال تعاقب الصور التى توالت عليها الى « مادية » جوفاء ، « ولا أدرية » لا ترقب وراءها من أمل ولا رجاء .

انك لن تجد عاملا من تلك العوامل المهدمة المقوضة ، على مابعثت فى الانفس خلال تعاقبها من لذة وفتنة ، قد انبتت متجهاً حديثاً اتجه فيه الفكر . وكل من أراد أن يدرس أوجه التدليل التى تهدمت بها النظامات الاجتماعية ، أو نقضت بها المعتقدات التى طالما اعزها الناس ، فلا بد من أن يرجع الى ما كتب مؤلفو القرن الثامن عشر ، الذين صبوا براهينهم وأدلتهم فى قالب من القوة والسلالة ، ظل المنهل الفائض الذى اعتل منه فوضويو القرن التاسع عشر زماناً طويلا . ولقد نسج على منوالهم من

كتات زماننا فئة خصت باوسع شهرة وأعظم منزلة .

كذلك ليس من قصدى أن أصف تلك الطرق التى تذرعت بها الحكومات والسياسيون ابتغاء صد الامم عن مطاليبها الشرعية . تلك الطرق التي انتهت فى أمريكا باعلان الاستقلال ، وفى فرنسا بصيحة الثورة الكبرى . فانه لم يتحقق من مجموع الامثال العليا التى ابرزتها تلك الحركة الكبيرة الا جزءاً ضئيلا فى انجلترا . ولقد صد الانصراف الى تحقيق الوحدة القومية ، أو الصرع ابتغاء الاستقلال السياسى كثيراً من أمم أوروبا عن الانبعاث فى سبيل الاصلاح الداخلى . ولم يتفق النظريون على أى من النظامات الاجتماعية تستطيع الحرية والمساواة أن تقوما لتعيشا فى جو واحد. على أن تماليمهم لابد من أن تسترعى شطرا من انتباهنا وعنايتنا باعتبارها صورة من صور الفلسفة العديدة التى انتجها الفكر فى القرن التاسع عشر. غير أن هنالك فجوة سحيقة تفصل بين النظريات الاجتماعية والسياسة العملية، سدت فراغها الحروب والمداهنات السياسية ، أو قنعت بأن يملأ خلاءها الكائن بين النظر والعمل ضروب من التوفيق مضت عاملة على التأليف بين النظامات التى خلفتها القرون الاولى وبين مهاترات العصر الحاضر من جهة ، وبين هذه وبين صيحة الامم المطالبة بحقها المشروع فى الحرية من جهة أخرى .

وعلى الرغم من أن جزءاً كبيرا من الفكر العملى مصحوباً بكثير من الجهد قد انفق فى سبيل الوصول الى تلك النتائج، فانى أعتقد أنها خارجة عن موضوعى الذى رسمته لنفسى . فحيثما خرجت الفلسفة أو العلم عن ذلك الجو الهادىء : جو الدرس الجدى ، أو تخطيا جدران قاعات المحاضرة ومعامل البحث، الى خلافات العوام وجدلهم ، وحيثما خرج الدين

عن اغوار النفس المعتقدة المؤمنة المخلدة لاسرار الغيب ، ليكون وسيلة لحل معضلات الحياة البشرية ، أو آدلة لآداء لواجبات اليومية، فهنا لك أمسك عن النظر فيها لانها بذلك تكون قد خرجت عن الحدود التى ألزمت نفسى السكون اليها ، والوقوف عند حدودها . وليس من معنى هذا أنى لاأسلم بوجود ذلك الحيز الذى تخضع فيه الروح المادة وتتغلب عليها ، والذى يكون الفكر فيه ذا نفع مادى ، والذى قد تنقلب فيه الفكرات الى حقائق ثابتة : حيز الجلاد والجهاد : حيز الصبر على العمل والانتصار التدرجى الذى تتم أسبابه حالا بعد حال فى هدوء وتسلسل ، فانه لحيز أعتقد أنه من أخطر مايتناوله التاريخ بالاثبات، وانه الحيز الذى أنبت فيه القرن التاسع عشر مالم يسعد به عصر من العصور الماضية . لست أقصد شيئا من هذا. بل أقصد أن النظر فى هذا الحيز من حياة القرن التاسع عشر لايأتى تاما مع قصرنا البحث على ثلاثة الامم الرئيسية التى أخذت من عالم الفكر بضلع وافر .

***

ان ذلك العالم الداخلى ليس بعالم الوداعة والسلام والنشوء الهادئ . فانك لن تقع على عصر أخصبت فيه العقول فى انتاج كثير من النظريات المتناقضة ، أو كان أكثر تحطيما للآراء والفكرات العتيقة ، او أشد تقويضاً للمبادئ التى ظلت قائمة ثابتة دهوراً طويلة ، من القرن التاسع عشر . على أننى سأظل أميناً على المبدأ الذى اعتنقته ، مبدأ ان انظر فى الفكر من ناحية أنه قوة تشييدية، لا كعامل تقويضى . أريد ان انظر فى عالم الفكرات كشطر مما كسب العقل من قوة اليقين ، وليس كظل متحول من ظلال اد الوجود المادى . وانى لا عتقد اعتقاداً حقاً بأن العقل الانسانى مهما استعان

بالمنبهات الخارجة عن حيزه لينمو وينشأ ، ومهما عجز عن التقدم بغير ان يستمد من مصححات القوى الخارجية ، فانه فى حياته الفردية والاجتماعية يتضمن نبعاً مستقلا عن كل الوجود الخارجى يفيض دائماً بالحقائق ذات الآصرة بالاشياء المحسوسة ، وبالفكرات على اختلاف ضروبها وتباين الوانها .

لذلك سوف اعمل وأجاهد لكى أجعل روايتى فى الفكر خلال القرن التاسع عشر دائرة حول النظر فى الفكرات التشييدية التى أبرزها العقل خلاله ، غير غافل عن الكلام فى الاساليب التى احتذاها البحث ، ولا صور الفكر التى أدت اليها. ولست أقصد بالفكرات التشييدية الا أمثال الفكرة فى « نشاط » المادة او « بقاء القوة » وتوزعها ، وقانون المتوسطات والاحصاء والتغليب ، وفكرات « دروين » Darwin و « سبنسر » فى النشوء علمياً وفلسفياً . ومذاهب « الفردية » « والذاتية » ونظرة « لودز » الخاصة فى عالم « القيم » . على ان حول هذه الاشياء تترا كم صور النقد التى تحاول نقضها ، والمسائل الخلافية التى تنبتها عقول المغالين فى المحافظة على القديم . غير أنى سوف لا أتناول بالبحث من مجمل ما نبذت به أقلام المحافظين الثابتين على مغالاتهم فى التمسك بالآراء العتيقة الا ما كشف لنا منها عن اصول الخطأ المتغلغة فى تضاعيف الفكرات الحديثة ، أو مانزل منها الى أبعد أغوار المبادىء والفكرات المبتكرة ليزيدها ثباتاً وحقا ، أو مايكشف منها عن أساليب جديدة تساعدنا على تحقيق القواعد التى نعكف عليها . ان هذه لهى الروح التى بثها الفيلسوف « كانت » فى الفكر الحديث . أما ماينقص تلك الروح من نزعات المتطرفين المغالين الذين يهدمون ولا يشيدون ، الذين عدت بهم الهمة عن بلوغ مرتكز ثابت يرتكزون عليه ، على اعتقاد أن

الفكر الانسانى وقوة المشاهدة المنبثة فى العقل ليست سوى خيالا ووهما ، فاولئك سوف أمر عليهم مرا لاعيرهم فيه شأنا ولا انتباها. ذلك خير ماتفعل ازاء فلسفة جوفاء عدمت كل معنى من معانى الحياة . ولا يفضلهم فى نظرى اولئك المحافظون على القديم الذين ينتقصون كل تقدم محاولين اخفاء ضوء النهار وراء الظلمة التى تنبعث من أقلامهم ، ويبشرون بمذهب « الاستمرار » فى الفلسفة ، ذلك المذاهب الذى ينكر كل تقدم صحيح فى العالم الانسانى . غير ان هذا كله لن يعوقنى عن الاعتراف بما كان لبعض الحركات الرجعية من نفع وفائدة . فان « الفلسفة التخيلية » Romanticism — بما كان فيها من حب الماضى ، وما أبرزته مثالياتها من تلك الصورة الفنية المحكمة التى صورت بها الانسانية فى طفولتها وغرارتها ، ومظاهر الحياة فى فطرتها الاولى ، واكبابها على دراسة حالات القرون الوسطى ، وما كونت من كفآت القياس التاريخى ، كل هذه الاشياء كانت لها فوائدها ، رغم طبيعتها الرجعية . سوف أبذل جهدى لكى اجيب دائما على من يسائلنى : أى شىء اضاف القرن التاسع عشر الى مجموعة ماانتج العقل من فكرات؟ وأى كسب نالنا من ذلك الجهد العظيم ؟ مقتنعاً بأن كل شىء فيه صفة الحياة لابد من أن ينمو ويزيد ويتضاعف . وأى شىء فيه من صفات الحياة الحقيقية مافى الفكر ؟

على أن مدرسة « النقد الفكرى » التى وضع أساسها الفيلسوف « كانت » ، والمدرسة « التخيلية » التى تركزت حول عقل « ووالترسكوت » Walter Scott والتخيليون الالمان ، ان كانتا اخص ما انتج الفكر فى القرن التاسع عشر ، فانى لاعتقد أنهما لاتصلحان أن تتخذا قاعدة أولية يبتدىء منها باحث يريد أن يؤرخ فى عالم الفكر خلال القرن التاسع

عشر . أن أخص مايجب أن ينصرف اليه كل من تصدى للبحث فى ذلك العهد ، أن يسوق بحثه متخذاً من مذهب « هيجل » فى « نشوء الفكر بالقوة الذاتية » مرصداً يرصد منه الفكر ليخلص من بحثه بنتيجة : دقق لدى المفكرين مقدار مافى هذا المذهب من حق ، وما ينطوى عليه من صواب .

***

بيان — وقعت اغلاط مطبعية سهواً فى بعض ملازم الكتاب ، وليست من الاغلاط المغيرة للمعانى المقصودة ، بل هى مما يفطن اليه القارىء بسهولة : لذلك حق علينا أن ننبه على ذلك والعصمة لله .

القاهرة فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢٣

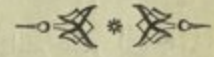

[redacted]
مظهر ،اسماعيل
نزعة الفكر الاوروبي في القرن التاسع
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01007784